أرنولد بينيت

الذوق الأدبي

كيف يتكون؟

ترجمة: دلال الرمضان





منشورات تكوين | الكتابة عن الكتابة
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة | 507

الذوق الأدبي
كيف يتكون؟

الكاتب: أرنولد بينيت

عنوان الكتاب: الذوق الأدبي، كيف يتكون؟

ترجمة: دلال الرمضان

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-12-0

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2018



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
@Dar alrafidain

أرنولد بينيت

مكتبة | 507

الذوق الأدبي

كيف يتكون؟

مع توجيهات وإرشادات مفصلة
لجمع مكتبة أدب إنكليزي متكاملة

ترجمة

دلال الرمضان

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكتابة عن الكتابة



الفهرس

الفصل الأول
الهدف

في بادئ الأمر ثمة مفهوم خاطئ فيما يتعلق بالذوق الأدبي علينا توضيحه وهو أن كثيرًا من الناس بل الغالبية العظمى منهم يعتقدون بأن الذوق الأدبي موهبة راقية تضفي عليهم مزيدًا من الكمال لدى بلوغها وتجعلهم أكثر توافقًا مع المجتمع الذي ينتمون إليه، فهم يشعرون بالخجل إزاء إهمالهم للجانب الأدبي بالطريقة ذاتها التي يشعرون فيها بذلك حيال جهلهم بقواعد الإتيكيت والذوق العام، أو على سبيل المثال، تجاه عدم مقدرتهم على ركوب الخيل حين يُطلب منهم ذلك.

فالفكرة السائدة لدى البعض هي أن هنالك أشياء محددة ينبغي على المرء معرفتها والإلمام بها، وأحد هذه الأشياء هو الأدب.

إذ تعلّموا كيفية الأناقة في الملبس واللباقة في التصرف في كافة المواقف وكانوا إلى حدٍ ما قادرين على تسيير المسائل الحياتية اليومية، وبالمثابرة والجرأة نجحوا أيضًا في حياتهم المهنية، مما يحتم عليهم عندئذٍ أن يضعوا نصب أعينهم أن الإلمام بالأدب جزء لا يتجزأ

من احترام الشخص لذاته. فالاهتمام بالرسم والموسيقى ليس بتلك الأهمية،بينما يتوجب على الجميع الإلمام بالأدب فهو نوع من أنواع التسلية الراقية، وعليه فإن الذوق الأدبي يؤدي غرضين: الأول هو كونه شهادة أو دليل على ثقافة الفرد السليمة، والثاني هو أنه يقدم للقارئ نوعًا من المتعة الخاصة.

ذات يوم قال لي بروفيسور شاب وهو مبدع في الرياضيات والألعاب بالإضافة إلى مهارته في الشطرنج وبراعته في عزف سيمفونية (هايدن) على آلة الكمان، بعد استماعه إلى نقاشات حول الكتب: «نعم، ربما يجب عليّ أن أكرس وقتًا للأدب»، وكأنه يقول: «كنت قد نسيت الأدب، بيد أنني انتهيت الآن من كل الأشياء الأخرى وسأكون بالفعل خجولًا الآن من إهمالي للأدب».

إن سلوكًا كهذا في التعاطي مع الأدب، أو أي سلوك آخر مشابه له، هو سلوك خاطئ وهو ببساطة أمر مضحك جدًا بالنسبة لأولئك الذين يدركون ماهية الأدب ويعرفون وظيفته تمامًا ناهيك عن عواقبه الوخيمة في عملية تكوين الذوق الأدبي.

بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون أن الذوق الأدبي موهبة وأن الأدب نوع من أنواع التسلية، لن ينجحوا حتمًا في اكتساب هذه الموهبة أو في استخدامها كنوع من أنواع التسلية والترفيه، بالرغم من كون الأدب التسلية الأمثل وبالرغم أيضًا من كون الذوق الأدبي الموهبة التي لا نظير لها من حيث الأناقة أو القوة في التأثير على المرائين من أبناء العالم المتحضر. وبرأيي فإن الأدب ليس أمرًا مكملًا

كما هو متعارف عليه، بل هو شيء أساسي لا غنى عنه لتحقيق العيش المتكامل لحياة الإنسان.

إنني حريص جدًا على تجنب المبالغات في هذا الشأن، ولا أعتقد أنني أفعل ذلك حين أؤكد لك عزيزي القارئ أن الشخص الذي لم يتسنَّ له بعد الاطلاع على حرية الأدب لم يستفق من سباته، بل أنه لم يولد بعد. فهو غير قادر على الإبصار أو السمع أو الإحساس بالشكل المطلوب وبالمعنى الكامل للكلمة وأقصى ما يمكنه أن يفعل هو تناول وجبة عشائه.

ما الذي يمكن أن يزعج الأشخاص الذين يدركون تمامًا وظيفة الأدب ويجنون ثماره أكثر من رؤية آلاف البشر يواصلون العيش وهم يتوهمون أنهم على قيد الحياة بينما هم في حقيقة الأمر يعيشون حياة أشبه بسبات دب في الشتاء.

سأخبرك ما هو الأدب! أو بالأحرى سأحاول جاهدًا أن أستطيع القيام بذلك الأمر الذي يستعصي على الجميع شرحه، إذ لا يمكنني سوى تسليط الضوء على بعض أسراره وإعطاء لمحات بسيطة عنه.

سأحاول جاهدًا تزويدك بنبذة عن الأدب، ولكي أفعل ذلك سأعود بك عزيزي القارئ إلى الوراء في سلسلة أحداث حياتك وتحديدًا إلى تلك العيشة التي خرجت فيها للتنزه مع صديقك المقرب الذي لا تخفي عليه شيئًا من أسرارك، أو كما يبدو ذلك، والذي كنت وفي واقع الأمر تميل إلى أن تخفي عنه أمرًا ما كان قد استحوذ على تفكيرك في ذلك المساء، إذ نجحت في ذلك متأثرًا

بذلك السحر الطاغي، وبما أن صديقك هذا كان حذرًا ومتعاطفًا معك وبعد أن أطرى عليك بطرافته اللبقة، استرسلت في الأمر وازداد تحفظك حتى صرخت في نهاية المطاف قائلًا: إنها ببساطة فتاة معجزة يا صاح! في تلك اللحظة تحديدًا كنت قد دخلت في ميدان الأدب.

دعني أشرح لك أكثر: من المؤكد أن الفتاة لم تكن (معجزة) في المعنى المقبول والاعتيادي للكلمة، إذ لم يلاحظ صديقك المقرب ذلك ولا غيره من أولئك الذين وقع نظرهم عليها يومًا، فقد كانت مجرد فتاة عادية لم تحرق من أجلها (طروادة) ولا يمكن لأي فتاة أن تلقب بالمعجزة، وإلا فيمكننا أن نطلق هذا اللقب على كل الأشياء التي تمتلك شيئًا من الجمال، وكل ما في الأمر أنك ربما فعلت ذلك لأنك من بين هذا الكم الهائل من معجزات الكون لم تلحظ سوى معجزة واحدة وكنت مهتمًا بشكل كلي باكتشافك هذا، متأثرًا باندفاع سماوي لمشاركة هذا الاكتشاف، إذ كان لديك حس عالٍ تجاه الجمال الخارق لشيءٍ ما (وهو جمال تلك الفتاة) وعليك أن تتشارك هذا الشعور مع الآخرين، فكان عليك عندئذٍ أن تبوح بتلك العواطف لأحدهم.

حاول أن تلاحظ تأثير مزاجك وألفاظك على صديقك المقرب فهو يعلم أن الفتاة لم تكن (معجزة) كما وصفتها، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يقنعه بذلك، لكنك جعلته يشعر لوقت طويل بأنه قد أعمي عن جمال تلك الفتاة وذلك بفضل صدق وعظمة تصورك

لها، بالإضافة إلى رغبتك في إشراكه في هذه الرؤية. فقد كنت تقدم أدبًا بذلك، كنت حيًا، عيناك كانتا تبصران وأذناك كانتا تتفتحان أمام شيء من جمال وغرابة هذا العالم وبداخلك فطرة قوية تحثك على البوح لأحدهم بما يجول في خاطرك. فلم يكن كافيًا بالنسبة لك أن تسمع وترى، بل أردت للآخرين أن يشاركوك ذلك ويعيروه بعضًا من انتباههم وقد كان لك ما أردت. فمن الممكن جدًا أن ينظر صديقك ذاك بعد ذلك بيوم أو حتى بشهر كامل إلى فتاة أخرى ويرى بأنها (معجزة) أيضًا وهذا ما يسمى تأثير الأدب.

" إن صانعي الأدب هم أولئك الأشخاص الذين شهدوا وشعروا بالمتعة الرائعة لهذا الكون وأعظمهم هم ذوو الرؤية الأشمل والإحساس الأقوى والأعمق. وحياة هؤلاء هي عبارة عن نشوة طويلة ومستمرة من إنكار لعتمة هذا العالم إذا ما قورنت برؤيتك التي جاءت عرضية ومؤقتة. ألا يعنيك أن تتعلم كيف تشعر بأن هذا العالم ليس مضجرًا؟ ألا يعنيك أيضًا أن تخرج من هذا النفق المظلم إلى العالم الرحب لتتسارع جميع حواسك وتستمتع بالنكهة الحقيقية للحياة، ولتشعر بنبضات قلبك تخفق تحت ربطة عنقك؟ صانعو الأدب هؤلاء يجعلونك تشعر بكل ذلك، فهم يجعلونك تنظر بأعينهم فترى الأشياء بطريقتهم.

ليس الهدف من الدراسة الأدبية ملء أوقات الفراغ، بل إيقاظ النفس البشرية ودب الحياة فيها وتعزيز القدرة على الاستمتاع والعطف والإدراك، فالهدف الأساسي للأدب هو تغيير علاقة الفرد بالعالم بشكل كامل ليدوم تأثيره هذا على مدى الأربع وعشرين

ساعة وليس لمدة ساعة واحدة فقط. ففهم وتقدير قيمة الأدب ليس سوى فهم وتقدير للعالم بأسره، هو الحياة بأكملها ممزوجة ببعضها البعض ضمن خارطة مركبة وليس بأجزاء مفككة من هذه الحياة. إن روح الأدب روح توحيدية تشمل ضوء الشمعة وسطوع النجم معًا وبسحر صورة ما ترينا أن عظمة الجمال تكمن في وجوده في أبسط الأشياء. كما أنها لا تحبذ كشف الجمال وجمع الأشياء المختلفة سويًا فهي تضفي نوعًا من الحكمة الأخلاقية عبر تتبعها للأسباب والنتائج في كل مكان. إذ تعزز ذلك بطريقتين، الأولى: عبر إظهار الجمال غير المتوقع. أما الثانية: فهي عن طريق البرهنة أننا نمتلك مصيرًا مشتركًا. إنها الصرخة العظيمة لمكتشفها الذي يبدي التعاطف ويطلبه في الإيماءة ذاتها.

عند حضور محاضرات الجامعة حول مصادر الحبكة عند شكسبير، أو عند دراسة بحوث (جورج سانتبيري) في كتابه «مدخل إلى أصول النثر في اللغة الإنجليزية»، أو عند تقدير الأدلة ضد أو مع التأكيد أن (روسو) كان محتالًا، حريٌّ بنا أن ننسى ماهية الأدب وهدفه وأن نذكر أنفسنا أن الأدب أولًا وأخيرًا هو وسيلة للحياة وبأن مشروع تكوين الذوق الأدبي ما هو إلا تعلم كيفية الاستخدام الأمثل لهذه الوسيلة. أما بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون الحياة ويفضلون الاستسلام لسباتهم وغفلتهم فمن الأفضل لهم أن يتجنبوا الأدب وخير مثال ينطبق عليهم هو هذا الشطر الرائع: «أن يجلسوا ويأكلوا التوت البري»، فرؤية غصن مخضر يشع بالمعرفة ربما تثير أعصابهم.

الفصل الثاني
حالتك الخاصة

غالبًا ما ينظر الشخص العادي بعدم الثقة إزاء كلاسيكيات لغته الأم، أقول ذلك ربما خوفًا من الوقوع في المشكلة ذاتها. لذلك قررت عدم أخذ أعمال شكسبير كمثال، نظرًا لأنها تدرّس في المدارس. إذ يمكننا القول إن مجلس التعليم وجميع الهيئات التربوية الأخرى قد أخذت على عاتقها جعل كل تلميذ على هذه الأرض عدوًا دائمًا لشكسبير (وحمدًا لله أنهم لم يدرّسوا بليك)، لذا سأجعل محور حديثي هنا توماس براون بما أن عامة الناس لا يحملون تجاهه أية ذكريات عدائية أو سيئة، ولابد أنهم قد سبق وقرأوا في مكان ما عن أسلوبه المميز والذي لا نظير له في الأدب الإنجليزي كله. وربما سيلمح أحدهم ذات يوم كتاب «عقيدة الطبيب» داخل أحد المتاجر أو بالأحرى أمام أحدها، لأنه سيتردد بشأن دخول المكتبة، ثم يشتري هذا الكتاب بدافع التجربة دون أن يتوقع أن تعجب به، لأن لديه قناعة راسخة بأن أسلوب (توماس براون) لا يتماشى مع ذوقه الخاص. نتيجة لذلك لن يستمتع بالكتاب كما هو متوقع، إذ

سيقرأ المقدمة ثم يلقي نظرة على الصفحتين الأوليتين دون أن يرى شيئًا سوى الكلمات. إذ لا يمتلك هذا الكتاب أي نوع من الجاذبية بالنسبة له، فيضع الكتاب جانبًا وإذا ما تم ذكر اسم (توماس براون) سيقول: «نعم، جميل جدًا!» مفتخرًا بكونه قد ابتاع شيئًا من أعماله وفي أعماقه اعتقاد بأن المولعين بتوماس براون هم أشخاص مليؤون بالغرور والتكلف.

في حال كان القارئ شابًا ومتفائلًا فإنه سيكرر التجربة بعد تعافيه من الخيبة التي سببها له (براون) بعد سنة أو ما يقارب السنة من تلك الحادثة، ولكنه سيجرب هذه المرة (ويليام كونغريف) أو (جوزيف أديسون) وهلم جرا، ربما لمدة عقد من الزمن حتى تنتهي علاقته بالكلاسيكيات ويعود لقراءة المجلات والأدب الخيالي اللذين يشكلان التاريخ الأدبي بالنسبة لشخص متوسط الثقافة.

وعلى الرغم من انشغالك الحقيقي بالأفكار الأدبية، إلا أن حالتك تحمل شبهًا مزعجًا بحالة ذلك الشخص الذي ذكرناه للتو. فلن تقترب من الكلاسيكيات بالحماسة ذاتها التي تعتريك عندما تقرأ رواية معاصرة جديدة لكاتب من عصرك كان قد جذب انتباهك.

فحين تقرأ كتاب «انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» لـ (إدوارد جيبون) لن تقول لنفسك: «حسنًا، يجب عليّ أن أقرأ فصلًا آخر قبل أن أخلد إلى النوم!»، وذلك لأن الكلاسيكيات لا تقدم لك المتعة التي تتناسب مع شهرتها وصيتها، فأنت تقرأها بدافع الواجب فتشعر عند قراءتها بأنك فعلت ما هو مطلوب منك من

أجل تطوير نفسك، لا من أجل البحث عن التسلية، فلن تتلذذ بقراءتها، بل ستواسي نفسك قائلًا: «هذا مفيد جدًا لي!»، حتى وإن قمت بوضع خطط للقراءة فإنك ستجد الأعذار والمبررات لكسر تلك الخطط والانصراف لقراءة شيء ما أكثر حداثة وبعدًا من الكلاسيكيات، والذي من المؤكد أنه سيصرف انتباهك تمامًا عنها. وحري بك حينها أن تدعي تأييدك لفكرة ترشيح رواية (كلاريسا هارلو) كإحدى أفضل الروايات في العالم ثم تبدأ بتجاهلها بسبب صدور عدد جديد لمجلة ما، أو مجموعة جديدة لعلامة تجارية معينة، إذ يجب عليك حينها أن تضع لنفسك خططًا معينة كالتالي: «لن أقرأ أي شيء قبل قراءتي لـ (ريتشاردسون) أو (جيبون) لمدة ساعة كاملة يوميًا». وهذا يبرهن أنك تعتبر الكلاسيكيات نوعًا من الدواء الذي إذا ما ابتلعته يعطيك مذاقًا حلوًا.

كلما ازدادت الكلاسيكيات حداثة، كلما أصبحت تتشابه مع مكونات الحياة، وكلما قلّ تشابهها مع كلاسيكيات القرون الماضية، كلما كانت أكثر سهولة وجاذبية بالنسبة للقارئ.

ونظرًا لسرورك لكون (جورج إليوت) و(عائلة برونتي) و(وليم ثاكري) يعتبرون من كتّاب الكلاسيكيات الذين تستمتع بقراءة أعمالهم، فإن مشاعرك تجاه هذه الأعمال تشبه إلى حدٍ كبير المشاعر التي تنتابك عند قراءة قصة من الطراز الرفيع في إحدى المجلات. ربما أكون قد بالغت قليلًا أو ربما قللّت من بعض الصفات غير المرضية لحالتك، ولكنني بالمقابل قد أساعدك في إدراك حدود تشابه حالتك تلك مع الأمثلة التي كنت قد أدرجتها للتو وبالرغم

من كونك لا تريد الاعتراف بهذا، إلا أن الأمر كذلك، فأنت لست راضٍ عن نفسك، ورغبتك بالاهتمام الفعلي بالأدب تتواصل بداخلك إذ تشعر بخللٍ ما في طريقة تعاطيك مع الأدب، لكنك لا تستطيع تحديد مكان هذا الخلل، والأنكى من ذلك كله هو شعورك ببعض الخجل من هذه الحال.

شيء ما بداخلك يجبرك على إظهار حماسة مصطنعة تجاه الكلاسيكيات حتى تصل إلى مرحلة تحاول فيها إقناع نفسك أنك بالفعل تستمتع بكتابٍ معين ثم ترميه جانبًا وتنسى أن تستأنف قراءته بعد ذلك، إذ تقوم بشراء الكلاسيكيات بين الحين والآخر دون أن تقرأها نهائيًا، ثم تقرر أنه يكفي أن تمتلكها وأن مجرد اقتناء الكلاسيكيات يعطيك (صكًا) يؤكد للجميع بأنك شخص مثقف، والحقيقة أنك تخجل من نفسك وتشعر بتأنيب الضمير حيال ذلك، فأنت تعكس مقولة ماثيو أرنولد التي تقول: «يجب أن أكون مغرمًا بـ «مقدمة» (ووردزوورث) وأنا لست كذلك، وماذا عساي أن أفعل؟».

هل يجب عليّ أن أدرس منهجًا ضخمًا لأتعلم كيفية الإعجاب بها؟ أم أنني ولدت دون ملَكَة الذوق الأدبي السليم بالرغم من رغبتي الغامضة بذلك؟ أتمنى فعلًا أن أستمتع بمقدمة (ووردزوورث) كاستمتاعي بقراءة رائعة (هربرت جورج ويلز) «بلد العميان» التي نشرتها مجلة (ستراند). لديّ قناعة كبيرة بأنك تخاطب نفسك بهذه المصطلحات في لحظات السخط وعدم الرضى

التي تعتريك أحيانًا، ولديّ قناعة أيضًا بأنني تمكنت من تشخيص حالتك.

إن مشروع تكوين الذوق الأدبي لأحدهم هو أمر متفق عليه ولا يمكن أن ينجح هذا المشروع ما لم يكن كذلك، ولكن هذا لا يعني أن يكون أمرًا موجزًا أو سهلًا، فخطة التغلب على لاعب الغولف الشهير (كولونيل بوغي) هي خطة مقبولة، لكنها تتطلب كثيرًا من العمل الصادق والدؤوب، وهذه حقيقة يجب أن تضعها دائمًا نصب عينيك، لأنك لن تستطيع تحقيق طموحاتك، مهما كانت عظيمة ومؤثرة، بجهود متقطعة تعوزها الحماسة. إذ عليك أن تبدأ بترتيب أفكارك بشكل كامل وأن تتهيأ ذهنيًا لذلك. بالإضافة إلى الالتزام الكبير بالهدف والعمل على تحقيقه بطريقة سامية وتحديد تاريخ معين في التقويم للاحتفال بإنجاز ذلك الهدف.

إن الطبيعة البشرية طبيعة هشة ضعيفة تحتاج للعون والتشجيع حتى في سعيها وراء السعادة. كما أن عنصر الوقت عنصر ضروري جدًا في تحقيق الهدف، فهو يلعب دورًا حاسمًا دائمًا وأبدًا فثمة كثير من الناس يقرون بأنهم لا يمكن أن يصبحوا أشخاصًا منظمين، فالانضباط يسبب لهم شللًا، وأعتقد أن ذلك ينطبق على قلة من الناس، بينما تصبح مخالفة النظام بالنسبة للبقية محاولة لتبرير كسلهم، وأنا على قناعة تامة بأنك قادر على الانضباط وأثق بأنك إذا قمت بتخصيص ساعات محددة في أيام بعينها من الأسبوع لغرض تكوين ذوقك الأدبي فإنك ستحقق هدفك المنشود بأسرع وقت. كما أن

التنفيذ الفعلي لجزء بسيط من هذا القرار سيساعدك كثيرًا، وهذه هي المرحلة التمهيدية الأولى. أما المرحلة التمهيدية الثانية فهي أن تحيط نفسك بالكتب وأن تخلق جوًا مليئًا بالكتب من حولك، فالجانب المادي مهم جدًا وهو أهم بكثير مما قد يبدو عليه بالنسبة لشخص قليل التجربة.

نظريًا، «ادخر من أجل شراء المراجع»، فالطالب لا يحتاج سوى كتابا واحدًا أحيانًا، إلا أن هاوي الأدب ربما ينفق نصف شلن أسبوعيًا أو بنسًا يوميًا على مجموعة تلو الأخرى من المؤلفات الكلاسيكية من أجل تطوير ذائقته الأدبية، وربما سيخزن مكتبته هذه في صندوق القبعات الخاص به أو في علبة حفظ البسكويت.

أما عمليًا فعليه أن يكون مرعبًا في إقدامه وتصميمه لكي ينجح في ظروف كهذه. كما يجب أن يرضي عينيه ويديه ويرضي شعور التملك بداخله أيضًا، فلا يمكن اكتساب الأدب دون تقديم بعض التضحيات، لأن الأشياء التي تتطلب التضحية غالبًا ما تكون هي الأقرب لقلوبنا.

ومن أجل المزيد من الاطلاع والمعرفة سأقدم لك عزيزي القارئ خطة لشراء الكتب لاحقًا، أما الآن، فإنني أنصحك بشراء كل الكتب القابلة للنشر دون التفكير في أيّ منها ستبدأ قراءتك فيما بعد، فالمهم أن تحيط نفسك برزم كبيرة منها بقدر الإمكان.

أما بالنسبة للقراءة، فكل ما سألزمك به هو تذوق عام وشامل للأدب من أجل اكتساب نوع من الألفة مع شكل الأدب بكافة

فروعه وربما سأقترح عليك تصفح أحد مجلدات «موسوعة الأدب الإنجليزي» لـ (تشامبر)، ويفضل أن يكون المجلد الثالث، كنوع من التدريب المبهر والشيق، إذ يمكنك بعد ذلك أن تحدد الكتّاب الذين يلفتون انتباهك.

الفصل الثالث

لماذا سميت الكلاسيكيات بهذا الاسم؟

إن الغالبية العظمى من الناس يهتمون بالأدب كاهتمامهم بالطائرات أو الدستور، فهم لا يهملونه تمامًا، لكنهم حياديون تجاهه، فاهتمامهم بالأدب ضعيف وسطحي، وإن حدث وأن كان هذا الاهتمام قويًا فهو متقطع. جرب أن تسأل المئتي ألف شخص الذين ساهم حماسهم تجاه رواية ما في شعبية وانتشار تلك الرواية قبل عشر سنوات مضت، حول شعورهم تجاهها الآن. ستعرف حينها أنهم قد نسيوا أمرها تمامًا، وأنهم أيضًا لا يفكرون إطلاقًا بإعادة قراءتها مرة أخرى، كما هو الحال بالنسبة لكتاب «صفوة الامتيازات» لـ (ويليام ستوبس)، وإن حدث وأنهم قاموا بقراءتها مرة أخرى فإنّهم لن يستمتعوا بذلك أبدًا، ليس لأن الرواية أصبحت أسوأ من ذي قبل، وليس بسبب تطور ذائقتهم الأدبية، بل لأنهم لم يدرّبوا أنفسهم على الاعتماد على ذوقهم كوسيلة للاستمتاع الدائم، فهم ببساطة لا يدركون كنه الأشياء التي تجلب لهم السعادة من يوم لآخر.

وربما يسأل أحدنا عن سبب استمرار الشهرة الواسعة لكتاب الكلاسيكيات، ذلك لأن هذه الشهرة مستقلة تمامًا عن الأغلبية العامة من الناس، فهل تعتقد مثلًا لو أن شهرة شكسبير اعتمدت على عامة الشعب لكانت ستستمر لأكثر من أسبوعين فقط!

إن شهرة كتّاب الكلاسيكيات صنعتها وساهمت في استمرارها أقلية مولعة بأعمال هؤلاء المؤلفين، وحتى عندما يتمتع كاتب من كتاب الدرجة الأولى بنجاحات واسعة فإن الغالبية لن يقدروه كتقديرهم لكاتب عادي دون الوسط. إنما يتم دعمه من قبل تلك القلة المولعة بكتاباته، وكذلك الأمر بالنسبة للكاتب الذي يكتسب شهرة بعد وفاته بسبب مثابرة وإصرار تلك القلة التي لا تستطيع تركه وحيدًا والتي تستمر بتذوق أعماله وشرائها والحديث عنها، إذ يبدون توقهم ولهفتهم الدائمة تجاه مؤلّفاته بشكل مليء بالثقة به وبأنفسهم. وهذا ما يجعل الأغلبية تعتاد على سماع اسمه وتقرّ بأنه مبدع بالرغم من كونها لا تكترث بكلا الأمرين. وبفضل هذه الأقلية يتم الحفاظ على استمرار شهرة هذا الكاتب ونقلها من جيل لآخر فهم يعملون بشكل دؤوب لاكتشاف المبدعين بحماسة وفضول أدبي لا يكلّ ولا يملّ للحد من فرص نسيان هذا المؤلف أو ذاك. وعلاوة على ذلك فهم يعملون دائمًا مع أو ضد آراء الأغلبية التي يمكنها أن تصنع شهرة لكاتب ما لكنها لا تأبه بالحفاظ على هذه الشهرة أبدًا، وإن حدث وصادف اتفاق تلك الأغلبية مع القلة المولعة بأعمال مؤلفٍ ما في موقف معين، فإن الأخيرة ستذكّر الأولى بصيت ذلك الكاتب باستمرار، والتي بدورها ستوافقها

الرأي بأنه يجب عدم تجاهل ما وصل إليه ذلك الكاتب من شهرة يمكن أن يصبح مصيرها النسيان لولا العمل على تذكير القراء بها باستمرار. وهي تقوم بذلك لأنها مهتمة بالأدب حقًا، فهو يعني لها الكثير، لذلك استطاعت أن تفرض نفسها بإصرارها وتكرارها لنفس العبارات فهل تعتقد أن بإمكانها أن تبرهن لرجل عادي أن شكسبير كان فنانًا عظيمًا؟ إن رجلًا كهذا لا يستطيع حتى استيعاب المصطلحات التي يتفوهون بها، ولكن بعد إخباره آلاف المرات لأجيال متلاحقة أن شكسبير كان فنانًا عظيمًا، سيعتقد فعلًا أنه كان كذلك، ليس اعتمادًا على المنطق، بل على التكرار، إذ يبدأ هو بتكرار تلك العبارة ليقوم بعدها بشراء كافة أعمال شكسبير ومؤلفاته ويضعها في مكتبته ثم يذهب ليشاهد المؤثرات المسرحية المذهلة التي ترافق مسرحية «الملك لير» أو «هاملت» ليعود بعدها وهو مؤمن تمامًا أن شكسبير كان مبدعًا، والفضل يعود في ذلك إلى أولئك المولعين بأعماله والذين لم يخفوا إعجابهم بشكسبير بل أظهروه للجميع ليؤثر فيمن حولهم تأثيرًا بالغًا وهذا ليس مدعاةً للسخرية، بل هو واقع. وهو أمر مهم إدراكه جدًا بالنسبة لأولئك الذين يرغبون بتكوين ذوقهم الأدبي.

ترى ما الذي يجعل أولئك الشغوفين بالأدب يحدثون كل هذه الضجة حوله؟

ثمة إجابة واحدة لهذا السؤال، وهي أنهم وجدوا في الأدب حماسة دائمة وقوية تجعلهم يستمتعون به مثلما يستمتع شارب الخمر

بجرعه. كما أن تواتر وتكرار هذه المتعة يبقي اهتمامهم بالأدب حيًا، فهم حريصون على إجراء الدراسات الجديدة والتدريب الدائم وتعلم فهم أنفسهم ومعرفة أهدافهم. فذوق هؤلاء يصبح موثوقًا أكثر كلما طالت مدة خبرتهم فهم لا يستمتعون اليوم بما يمكن أن يبدو لهم مملًا في الغد، وعند مصادفتهم لكتاب ممل لا يمكن لأي أحد إقناعهم بأنه ممتع، والعكس صحيح، فإن وجد أحدهم كتابًا ممتعًا فلن يتأثر برأي الآخرين حول الكتاب الذي بين يديه، فهم يمتلكون ثقة عالية تجاه أنفسهم. فما هي صفات الكتاب الذي يقدم متعة كبيرة ومستمرة لأولئك القلة؟

إنه لمن الصعب الإجابة بشكل كامل على سؤال كهذا؛ لأنك ربما تتحدث قليلًا عن الحقيقة، الفطنة، المعرفة، الحكمة، الفكاهة، الهزل أو الجمال، لكن هذه الكلمات المريحة لا يمكنها أخذك بعيدًا لأنها يجب أن تُوضّح أكثر وخصوصًا الأولى منها والأخيرة. أما بالنسبة لـ (جون كيتس) فكان من الأفضل له أن يؤكد بأسلوبه الرشيق أن الجمال يكمن في الحقيقة والعكس صحيح، وهذا كل ما يعرفه ويحتاج لمعرفته، أما بالنسبة إليّ فإنني لا أعرف شيئًا وأحتاج لمعرفة المزيد.

لا أحد منا يعلم لماذا يعجبه كتاب ما، حتى (ويليام هازلت) و(شارل أوجستان سانت بوف) فعلى سبيل المثال عندما أعرض لك عزيزي القارئ السطور التالية من إحدى قصائد (ويليام بتلر ييتز) التي تعجبني والتي تقول:

لقد ماتت غابات أركاديا
وانتهى فرحها العتيق

ثم سأخبرك أن هذه السطور تمتعني وتروقني جدًا، لكنني لا أعرف ما السبب في ذلك وكل ما أعرفه أن أولئك المولعين بالأدب سينسجمون معي في استمداد تلك المتعة الغامضة من هذه السطور، ولدي قناعة كبيرة بأن الحياة التي تبثها فينا هذه السطور وغيرها من مؤلفات ذلك الكاتب تجعل الغالبية العظمى من الناس تؤمن تمامًا بأنه كاتب رائع ومبدع حقًا. فالجانب الذي يبعث على الطمأنينة في هذه العلاقة الأدبية هو أن تلك القلة الشغوفة بالأدب مولعة بالأشياء ذاتها، كما أن استمرارها بالاهتمام بالأدب من خلال الممارسة الفعلية له تفضي إلى ذات الأحكام والآراء.

أما الاختلاف الوحيد بينها يتمثل في نطاق الاهتمام، إذ يفتقر بعضها إلى الشمول، أو بالأحرى ينحصر اهتمام بعضها في سياق واحد، إلا أنها تساعد في بث الحيوية وتسليط الضوء على الكتّاب المنسيين أمثال (ريتشارد كراشو) لكن ميولها القوية هذه لا تتنافى مع رأي تلك القلة الشغوفة بالأدب، بل إنها تعمل على تأكيدها.

إن العمل الكلاسيكي عمل يقدم المتعة لقلة من القراء الذين يهتمون بالأدب بشكل مكثف ودائم، وهذا العمل يحيا بسبب تلك القلة التي تسعى دائمًا لتجديد ذلك الشعور بالمتعة، والتي لطالما كان لديها حب استطلاع دائم يجعلها تنشغل بعملية اكتشاف هذا الكتاب وهو لا يسلم من النسيان أيضا لأنه يتوافق مع الشرائع والقوانين

أو لأن الإهمال لن يتسبب في القضاء عليه، بل لأنه يعتبر مصدرًا للمتعة، ناهيك عن عدم استطاعة تلك القلة الشغوفة بالأدب أن تهمله فهي لا تستغني عنه فهي كحال النحلة التي لا تستطيع العيش دون الزهور.

إن القراء الشغوفون بالأدب لا يقرؤون «الكتب الصائبة»، لأنها كذلك، بل إن الكتب تصبح «صائبة» لأن هذه القلة من محبي الأدب تفضل قراءتها.

ما أريد قوله هنا هو أن الشيء الأساسي بالنسبة لعملية تكوين الذوق الأدبي هو الاهتمام الحقيقي بالأدب، فإن استطعت ذلك فكل ما تبقى سيأتي دون عناء، ولا يهمنا عدم استمتاعك ببعض الأعمال الأدبية في الوقت الراهن. كما أن الحافز القوي لاهتمامك هذا سيدفعك لاكتساب الخبرة التي ستعلمك بدورها كيفية الاستخدام الأمثل لوسيلة المتعة تلك (ألا وهي الأدب)، فكل ما في الأمر أنك لم تتعرف بعد على السبل الخفية لنفسك.

ومن المؤكد أن استمرارك بالاهتمام بالأدب سيصل بك إلى أقصى درجات البهجة. أما بالنسبة للخبرة، فلك الخيار في اكتسابها والوصول إليها بتروٍ أو على عجلة، فالمسافة إلى منطقة (بوتني) جنوب غرب لندن من منطقة (والهام جرين) مختلفة تمامًا عن المسافة بينها وبين (سانت بطرسبرغ) ولك الخيار في الاختيار مابين الطريقين حينئذٍ.

الفصل الرابع
من أين تبدأ؟
من أين يجب عليك البدء؟

أتمنى ألا يصاب قرائي بالذعر أو الرهبة بشأن اتساع وتعقيد عملية تكوين الذوق الأدبي، فهي ليست بذلك الاتساع والتعقيد الذي تبدو عليه، فليس هنالك ضرورة بأن يخيف أو يربك القارئ قليل الخبرة والمولع بالأدب نفسه بأفكار تتعلق بالأدب بكافة فروعه، بينما يتعيّن على الخبراء والتربويين، على وجه الخصوص، تقسيم الأدب، بغرض السهولة والملاءمة، إلى أقسام وفروع مثل: الشعر، والنثر أو الأدب الخيالي، الفلسفي، التاريخي.. أو إلى رثائي، بطولي، شعري، ديني، وثني، أو لا نهائي.. إلخ.

لكن الحقيقة الأعظم هنا هي أن الأدب كيان واحد لا يمكن تقسيمه، وفكرة وحدة الأدب فكرة يجب غرسها وتعزيزها في أذهان الجميع، فالأدب تعبير عن الأحاسيس والمشاعر والعواطف التي تحدث نتيجة للإحساس بمتعة الحياة وجمالها.

ترى، ما الذي يدفع بالمؤرخ ليكتب التاريخ؟! إنه ببساطة التأثير الطاغي الذي تتركه دراسة الأزمنة الماضية في نفسه، فهو مجبر

على إعادة تشكيل الصورة للآخرين. إذا لم تستطع حتى الآن أن تدرك أن المؤرخ كائن يحمل عواطف جياشة يحاول نقلها للآخرين فلتقرأ المقطع الذي يصف فيه (ادوارد جيبون) كيف أنهى كتابه «ضعف الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، والذي ورد في كتاب «مذكرات» الذي يعرض فيه (إدوارد جيبون) سيرته الذاتية، فلن تنظر بعدها إلى «ضعف الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» كعمل جاف خالٍ من المشاعر مرة أخرى إطلاقًا.

إن ما ينطبق على التاريخ، ينطبق أيضًا على غيره من الفروع (الجافة) الأخرى، فمعجم (صموئيل جونسون) تم جمعه بشغف أيضًا. قم بقراءة المقطع الأخير من المقدمة والذي يقول: في هذا العمل، ربما نكون قد أنقصنا الكثير لكننا نرجو ألا تنسوا أيضًا أننا أنجزنا بالمقابل الكثير، الأمر الذي ربما سيجبر النقاد والمغرضين على إدراك أنه في حال أخفقنا في عرض مفردات لغتنا بشكل كامل في هذا المعجم، فسوف نكون قد فشلنا في محاولة لم تستطع قوة بشرية حتى الآن إنجازها بشكل كامل. وهلم جرا حتى نهاية قوله: «لقد أرجأت عملي هذا حتى مات معظم أولئك الذين أردت أن ينال العمل على رضاهم، حتى أصبح للنجاح والإخفاق أصوات جوفاء، ثم صرفت النظر عنها بسكينة فاترة، فلدي القليل من الخوف من الاستهجان والقليل أيضًا من التمني والتوق للمدح والثناء».

إن ما يميز هذا المقطع الذي يعتبر من أفضل المقتطفات النثرية في اللغة الإنجليزية هو حرارة العاطفة والهدوء والسكينة الخالية من

الفتور، وربما ستجد الخواص والمزايا ذاتها في كتب أخرى ككتاب «المبادئ الأولى» لـ (هربرت سبنسر) أو في أي مكان آخر في الأدب بدءًا من سخرية الكساندر بوب ذات اللهيب البارد، وانتهاء بحرارة أدب (الفيرنون تشارلز سوينبورن) المشتعلة، فلا يمكن للأدب أن يبدأ قبل بدء المشاعر.

ليس هنالك اختلاف محدد بين النثر والشعر، لأن النثر يمكن أن يأتي موزونًا في بعض الأحيان. والشيء الوحيد الذي يمكننا قوله هنا هو أن الشعر قابل للخضوع للتقطيع بينما لا يمكن للنثر ذلك، فالفرق بينهما شكلي بحت. وقد نجح قلة بسيطة من الشعراء في أن يكون أسلوبهم الشعري ساحرًا ومنهم (إِشَعْيَاءَ) و(توماس براون)، بينما تميز (جون راسكن) في مجال النثر. وعمومًا فإنه يمكننا القول إن هنالك نزعة لدى الكتّاب لاختيار الشعر للتعبير عن أسمى المشاعر، لذلك جاءت أبرز الأعمال الأدبية بصيغة شعرية. ولا شك أن الإنجازات الأدبية العظيمة في مجال النثر تضاهي نظيرتها في الشعر، لذا فمن الصعب الفصل بينهما، ففي المعنى الأفضل لفهم الشعر يعتبر الأدب كله شعرًا، أو بالأحرى، لابد أن يحتوي على حسٍ شعريٍ حتى وإن كان نثرًا، فـ (توماس ماكولي) تمكن من بث الحيوية والحياة في مقالاته التي تحتوي على اتهامات مظللة وغير عادلة وتحويلها إلى شعر بفضل مشاعره القوية تجاهها، بينما اندثر كتابه «أناشيد روما القديمة» لأنه لم يكن يعبر عن مشاعر حقيقية.

فكلما تطور الذوق الأدبي للفرد، أصبحت تلك المشاعر ملموسة أكثر في الأدب، أيًا كانت طبيعة هذه المشاعر، سواء كانت مكبوتة أم

تم التعبير عنها بحرية، فالجودة هي التي يجب البحث عنها، لأنها ليست قادرة على توحيد الأدب فحسب، بل بإمكانها توحيد كافة أنواع الفنون.

إنه لأمر غير مجدٍ أن تقوم بتقسيم الأدب إلى أقسام وفروع ذات قوانين وقواعد وشرائع مختلفة. إذ يجب عليك أولًا امتلاك الأدب، فعندما تعتريك تلك المشاعر التي لطالما حاول كبار الكتّاب تصديرها إليك، وحين تصبح هذه المشاعر هائلة وغامضة إلى الحد الذي تشعر فيه بالحاجة إلى ترتيبها وتسميتها، عندئذٍ يمكنك البدء في دراسة ما كنت تنوي القيام به لتصنيف وتسمية الأدب.

وتلعب الكتيبات الإرشادية والدراسات الأدبية دورًا ممتازًا في هذه المرحلة، صحيح أنها ثقيلة في البداية، لكنها تمكنك من اكتساب أفكار معينة لتكوين فكرة عامة عن كل عمل أدبي، فلا يمكنك صنع الطوب دون القش وكذلك الأمر بالنسبة لهذه الكتيبات صغيرة الحجم كبيرة النفع.

لا تقلق عزيزي القارئ بشأن الأدب من الناحية النظرية أو بشأن النظريات المتعلقة بالأدب، بل احرص على اقتنائه والحصول عليه. تمسك بالأدب بمعناه المادي كما يتمسك الكلب بالعظمة، وإذا ما سألتني من أين ستبدأ، سأرمقك بتلك النظرة التي أنظر بها إلى (حيواني الأليف) حينما يسألني من أي اتجاه سيبدأ بتناول تلك العظمة، فالبداية ليست بتلك الأهمية. ابدأ من حيث يأخذك شغفك، فالأدب كل لا يتجزأ، ولكن ثمة شرط واحد، وهو أن

تبدأ بعمل كلاسيكي، وأن تتجنب الأعمال الحديثة والسبب في ذلك لا يتضمن أي استخفاف أو تقليل من قيمة الأعمال المعاصرة على حساب أعمال العصور الماضية. ومن المهم جدًا، في واقع الأمر، أنك إذا أردت فعلًا تكوين ذوق واسع وعام، فعليك بالحذر من الفرضية الشائعة والتي مفادها بأنه لا يمكن لأي عمل من الأدب المعاصر أن يقارن بالكلاسيكيات.

في كل عصر من العصور ثمة أناس يتحسرون قائلين: «لقد كان لدينا كتّاب رائعون قبل خمسين عامًا من الآن، لكنهم قضوا نحبهم جميعًا ولا يوجد من يأخذ مكانهم من الكتّاب الشباب!»، إن سلوكًا ذهنيًا كهذا يعتبر سلوكًا مؤسفًا إن لم يكن سخيفًا إلى حدٍ ما، وإن دل على شيءٍ فإنما يدل على ذوقٍ محدود. ولدي يقين تام بأنه في عام ١٩٥٩ كان بعض الأشخاص المتشائمين يكررون المقولة التالية: «في بداية هذا القرن كان هنالك شعراء رائعين أمثال (الفيرنون تشارلز سوينبورن) و(جورج ميريدث) و(فرانسيس تومبسون) و(ويليام تبلر ييتس)، بالإضافة إلى روائيين مبدعين أمثال (توماس هاردي) و(جوزيف كونراد) ناهيك عن المؤرخين العظماء مثل (ويليام ستبس) و(فريدريك ويليام ميتلاند).. إلخ. لكنهم رحلوا جميعًا ومن لدينا ليحل محلهم؟!».

ليس من المنطقي بمجرد مضي عصرٍ ما، أن ننسى أنه شهد أعمالًا متوسطة الجودة وننظر إلى كتّاب ذلك العصر كمجموعة من المبدعين، إذ نغفل عن تلك الكمية الهائلة من الأعمال السطحية التي كتبت في تلك الفترة ونستمر في تمجيدها فقط لأنها مضت وانتهت.

إن إجمالي أفضل الأعمال الأدبية التي تنشأ في فترة زمنية معينة يختلف من عصر إلى آخر، لكنه لا يختلف كثيرًا. وربما علينا أن نثق بأن العصر الذي نعيشه سيترك انطباعًا إيجابيًا بالنسبة للأجيال القادمة التي ستقرر ذلك. لذلك، لنكن حذرين من الاستهانة بحاضرنا الأدبي وإهماله ولنفكر مليًا بأنه يحتوي على ثمار أدبية تضاهي ثمار غيره من العصور.

إن السبب الرئيسي الذي يستدعي تجنبك لقراءة الأعمال الأدبية المعاصرة في بداية عملية تكوينك لذوقك الأدبي هو ببساطة لأنك لست بموقع يسمح لك بالاختيار بين الأعمال الأدبية الحديثة ولا يوجد أحد غيرك كذلك فعملية التمييز بين الغث والسمين من الأعمال الأدبية تتطلب وقتًا طويلًا.

إن الأعمال الأدبية الحديثة (المعاصرة) يجب أن ترضي أذواق الأجيال المتعاقبة، بينما يكون العكس صحيحًا حين يتعلق الأمر بالكلاسيكيات. فذوقك هو الذي يجب أن يتخطى حدود الكلاسيكيات، وهذا هو بيت القصيد.

فإذا حدث واختلفت وجهة نظرك مع وجهة نظر مطروحة في عمل كلاسيكي فأنت المخطئ حتمًا، في حين يختلف الأمر تمامًا مع الأعمال المعاصرة التي إذا اختلفت مع أحدها فربما تكون محقًا أو مخطئًا، ولا يوجد أحد مخوّل كفاية ليقرر أيكما على حق ففي هذه المرحلة التي لم يتكون فيها ذوقك الأدبي بعد، أنت بحاجة إلى توجيه وإرشاد وهذا التوجيه يجب أن يكون موثوقًا.

في الطريق إلى تنفيذ مهمة تكوين الذوق الأدبي، تلعب الثقة دورًا كبيرًا في تنفيذ تلك المهمة، فربما لا يروقك عمل كلاسيكي معين في بادئ الأمر وفي حال أبديت اهتمامًا حقيقيًا بهذا العمل منذ البداية فإن ذوقك الأدبي المتعلق بهذا الكتاب قد تكوّن، لكن فرضيتنا المتعلقة بذوقك الأدبي بشكل عام لم تكتمل بعد، فكيف ستصل إلى مرحلة الاهتمام الحقيقي بذلك الكتاب؟

إنها بالطبع عبر تفحص ذلك الكتاب والسعي لفهمه بصدق، إلا أن هذه العملية تحتاج إلى الثقة والإيمان واستحضار حالة ذهنية يقول فيها القارئ لنفسه ما يلي: «أعلم تمامًا أن هذا الشيء جيد وأنه قادر على جعلي أشعر بالمتعة طالما أنا مصرّ على إيجادها في هذا العمل!».

وكن على ثقة تامة عزيزي القارئ بأن الثقة تؤثر بشكل كبير في عملية تطور واتساع الذوق الأدبي الذي يعتبر أداة للاستمتاع الحقيقي، لكن هذه الثقة يجب أن تستند إلى مصدر موثوق.

الفصل الخامس

كيف تقرأ عملًا كلاسيكيًا؟

فلنبدأ بقراءة تجريبية مع الكاتب (تشارلز لام) الذي اخترته لأسباب عدة منها كونه كاتبًا عظيمًا يحظى بجاذبية كبيرة، ناهيك عن تعاطفه وإحساسه المرهف، بالإضافة إلى أن أعماله غالبًا ما تكون بسيطة وقصيرة في الوقت ذاته، وعلاوة على ذلك، فإنه بإمكان (لام) أن يأخذنا إلى مسائل وقضايا أكثر تعقيدًا، وهذا ما سنراه لاحقًا.

إنه لمن الطبيعي أن تقرأ (تشارلز لام) وكأنك تقرأ كتابًا، فقط لأنه جاء في مرحلة الكلاسيكيات. (تشارلز لام) كان مؤلفًا ولم يكن كتابًا، لذلك فمن الضروري جدًا أن يكوّن القارئ المبتدئ في الدراسة الأدبية فكرة عن مؤلف الكتاب الذي ينوي قراءته، فالكتاب ليس سوى تعبير عن مؤلفه الذي يحاول الحديث معك لينقل إليك بعضًا من أحاسيسه ومشاعره، أما القارئ المتمرس ذو الخبرة فيمكنه التمييز بين المؤلف والكتاب ويمكنه أيضًا التنبؤ بطبيعة ذلك المؤلف واستيعابه وفهمه من خلال قراءة كتابه. بينما يحاول القارئ المبتدئ

مساعدة نفسه في فهم الكتاب بالاعتماد على معلومات مستقلة حول الكاتب فيكون بذلك قد ربط الكتاب بشيء بشري وعزز في ذهنه بذلك فكرة ارتباط الأدب بالحياة، كان الأدب قديمًا ينقل بشكل شفهي من المؤلف إلى المتلقي مباشرة فكانت تلك هي الطريقة المثالية إلى حدٍ ما آنذاك، لكن التغيرات التي طالت تركيبة المجتمع جعلتها مستحيلة، وبالرغم من ذلك، لازال بوسعنا سماع صوت الكاتب وهو يتحدث إلينا، وذلك بفضل تدريب قدرتنا على التخيل، إذ يجب علينا أن ندرب خيالنا على الإحساس والشعور بمؤلف النص أو الكتاب الذي بين أيدينا.

قبل البدء بقراءة أي عمل لـ (تشارلز لام) علينا أولًا أن نقوم بجمع بعض المعلومات المتعلقة بسيرته الذاتية، وثمة سير ذاتية قصيرة رائعة تحكي عن (لام) كتبها (كانون إينفر) في كتاب «قاموس السير الذاتية الوطنية» في «موسوعة تشامبر»، وكذلك الأمر في «موسوعة تشامبر للأدب الإنجليزي» وفي حال لم يكن لديك أيٌّ منها (بالرغم من ضرورة اقتنائك للأخيرة) فيمكنك اقتناء نسخة من سيرة (تشارلز لام) التي كتبها (ادوارد فيرال لوكاس) المعنونة باسم «حياة» طبعة ميثيون. أو تلك الأقل سعرًا منها والتي جمعها (والتر جيرولد) وكانت بعنوان «لام» طبعة (بيل وأبناؤه)، بالإضافة إلى الدراسات التمهيدية التي تصدّرت مقدمات إصدارات عديدة من أعمال (لام). فتلك التسهيلات المتاحة من أجل جمع مواد تساعدنا في تكوين صورة عن (لام) الإنسان تعتبر هائلة في واقع الأمر.

والآن بعد أن تنجح في تكوين صورة عن شخصية (لام) فلتبدأ بقراءة «مقالات إيليا» على ضوء تلك الصورة التي رسمتها له في مخيلتك.

سأختار أحد أكثر مقالاته شهرة وهي «حلم الأطفال»؛ الفكرة الحالمة، عند هذه النقطة تحديدًا أريدك أن تضع كتابي هذا جانبًا وتبدأ بقراءة مقالة «حلم الأطفال» ولا تقل لنفسك بأنك ستقوم بقراءتها لاحقًا، بل ابدأ بقراءتها الآن، وبعد أن تنتهي منها يمكنك أن تواصل قراءة المقطع التالي.

ستعتبر «حلم الأطفال» بعد قراءتك لها وثيقة إنسانية، كان (لام) قد قارب الخمسين عامًا من عمره حين كتبها، يمكنك أن تلاحظ، خاصة في السطر الأخير، أن موت أخيه الأكبر (جون لام) لازال عميقًا ومؤثرًا في ذاكرته. ستكتشف أيضًا أنه مرّ بعلاقة غرامية فاشلة في شبابه، إذ ارتبط بفتاة تدعى (آن سيمونز)، والتي تزوجت فيما بعد برجل اسمه (بارترم). ستدرك أيضًا من خلال قراءتك أن حقل جدته كان من أحد الأشياء التي أثرت في طفولته بشكل كبير بالإضافة إلى مدبرة منزل (بلاك سوير) الكائن في مقاطعة (هارتفورد شير) حيث كان يقضي بعض إجازاته هناك. ستبين لك المقالة بأن (لام) كان أعزبًا يعيش مع أخته (ماري) التي كانت مهووسة بالقتل، ومقالته هذه كانت تعبيرًا قويًا عن شعوره بالوحدة الذي يزداد في حياته يومًا بعد يوم. استطاع (لام) أن يرسم لك صورة حية للبهجة الأبوية من أجل أن يصور لك ذلك المنزل بطريقة مؤثرة جدًا ليعبر عن إحساسه بعزلة الوجود وشعوره بكل

الأشياء التي فقدها. إن مفتاح مقالة (لام) هذه كان الحزن العميق، لكنه استطاع أن يجعل هذا الحزن أنيقًا، أو بالأحرى، استطاع أن يظهر الجمال الكامن خلف هذا الحزن. ستراه جالسًا على كرسيه بهدوء وتقول لنفسك: «نعم، إنه لأمر محزن، لكن هذا الحزن جميل إلى حدٍ ما»، عندما تقول هذه العبارة في نفسك، يكون (تشارلز لام) قد وصل إلى الهدف الأساسي من وراء كتابة هذه المقالة.

أما عن كيفية قيامه بالتأثير على القارئ بهذه الطريقة فهو أمر لا يمكن شرحه تمامًا، لكن لا شك أن أحد أسباب نجاحه في ذلك هو احترامه للواقع. فلم يقم بتصوير أخيه بطريقة مثالية، كذلك الأمر بالنسبة لعلاقته بأخيه، فلم يدّع، كأي شخص عاطفي، بأن علاقتهما لم تشبها شائبة أبدًا، لكنه في المقابل لم يبالغ في عزلته أيضًا.

(لام) كان شخصًا عاقلًا لديه من الفطرة السليمة والمنطق ما يمكّنه من تحمل كل تلك المحن التي مرت في حياته، وربما يكون قد أخبرك بأن شقيقته (بريجيت) أو (ماري) كانت مهووسة بالقتل، لكن ما أراد أن يخبرك به فعلًا هو أنها كانت مخلصة أيضًا. أما السبب الآخر وراء نجاح (لام) هو مراعاته للأشياء الجميلة والأفعال النبيلة التي صورها لنا من خلال الصفات الرئيسية لشخصيتي جدته وأخيه وفي الوصف المفصل لمنزل (بلاك سوير) والحدائق المحيطة به. كما كانت صورة الأطفال، إلى جانب تلك الصور الرئيسية، صورة حقيقية حتى اللحظة التي تلاشوا فيها بعد أن استفاق (لام) من فكرته الحالمة.

لقد أدخل (لام) صفات الطفولة بدقة ودعابة مرارًا وتكرارًا، كما في الأمثلة التالية: «هنا ابتسم جون إلى الحد الذي يمكننا وصفه بالحماقة»، «مدت (أليس) الصغيرة يديها»، «هنا تحركت قدم (أليس) اليمنى بشكل لا إرادي ولم يوقفها سوى اصطدامها بجسدي»، «رفع جون حاجبيه محاولًا أن يبدو شجاعًا»، «قام جون بملء الصحن مرة أخرى بعنقود من العنب»، «بدأ الأطفال بالصراخ وتوسلوا إليّ كي أروي لهم قصصًا عن والدتهم الجميلة المتوفاة».

أما العبارة الرائعة فكانت كالتالي: «هنا رمقتني (أليس) بإحدى نظرات والدتها وكأنها توبخني بطريقة مهذبة».

لقد نجح (لام) في إلهام القارئ برؤية جديدة وعميقة لجمال الحزن لدى الأطفال، قدرتهم على المحاكاة، مشاعرهم الرقيقة السخية، وتوقهم الشديد للاستقامة وبراعتهم في الهرب من الحزن إلى البهجة. إذ تمكن (لام) من جعلك ترى هؤلاء الأطفال بوضوح وحنان رآه هو فيهم. وربما بعد أيام من قراءتك تلك لن تستطيع النظر إلى أي طفل دون استحضار الصورة التي رسمها (لام) في مخيلتك عن جمال الطفولة. سيكون بذلك قد شارك معك إدراكه وفهمه لمفهوم الجمال، أما إذا كان لديك أطفال سيجدد (لام) سحر الطفولة في عينيك بعد أن أصبح قديمًا وباهتًا في نظرك تمامًا بسبب التعود.

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن مقياس نجاح (لام) في تصوير الأطفال هو ذاته مقياس نجاحه في تأثيره العام، فكلما بدت صورة

هؤلاء الأطفال واقعية، كانت حقيقة أنهم غير واقعيين ولن يكونوا كذلك أكثر تأثيرًا وملامسة للقلب. وإذا كنت قد تأثرت بإشارة (لام) إلى «أمهم الجميلة المتوفاة»، فستتأثر أكثر عندما تعلم أن تلك الفتاة التي من المفترض أن تكون أمهم ليست ميتة ولا تمتّ لـ (لام) بأي صلة.

بعد قراءتك للمقالة، سوف تفكر مليًا بها وسترى بأن تأثيرها العاطفي القوي عليك تولّد من التعابير الصادقة الواقعية غير المبالغ فيها للمشاعر الحقيقية لشخص لديه هوّس بالجمال وأعين تتفتح أمام عظمته.

إن جمال البيوت العتيقة والحدائق والشخصيات الفاضلة الطاعنة في السن، جمال الأطفال وجمال المشاركة وجمال الأحلام الرقيقة أثناء غفوة على كرسي، كل تلك الأشياء اندمجت وانصهرت ببعضها لتختلط بالحزن والأسى الذي يشكل مزاج الكاتب الطاغي على مجمل المقالة.

لماذا تعتبر مقالة «حلم الأطفال» من الكلاسيكيات؟

تعتبر مقالة «حلم الأطفال» عملًا كلاسيكيًا لأنها تنقل لك وللأجيال التي سبقتك مشاعر مميزة وتجعلك تستجيب لنبض الحياة بشكل أكثر عمقًا وعدلًا ونبلًا. وهي قادرة على ذلك تمامًا لما يتمتع به (تشارلز لام) من فكر مميز وحساس وصادق.

فكانت مشاعره نبيلة وكان حريصًا على إيجاد الراحة في نقل هذه المشاعر لمن حوله. كما تميّز نهجه الفكري بالصدق والإخلاص

فلم يبالغ في إظهار الحقيقة، لكنه لم يتعمد إخفائها أبدًا. لو أن أسلوب (لام) افتقر إلى أحد هذه الصفات الثلاث لضعفت وقلّت جاذبيته ولم يكن ليتسمّى كاتبًا كلاسيكيًا عندئذٍ. لو أن مشاعره كانت ضعيفة باهتة أمام ذلك الجمال الخالص لكانت لا تستحق أن تنقل للغير أو أنه لم يكن يمتلك القوة الكافية للتعبير عنها أو الأمانة المطلوبة لإيصالها بدقة متناهية، لما كان بإمكانه أن يخلق فيك ذبذبات المشاعر تلك التي تسمى متعة، والتي تنشأ بالأساس عبر التشارك بالإحساس بأسمى المشاعر. بينما كان (لام) يجلس على كرسيه، يفكر بأخيه المتوفى، وبجانبه شقيقته المخلصة المهووسة بالقتل، سيكون قد قال في نفسه: «هذا جميل.. الحزن جميل، والخيبة كذلك.. والحياة جميلة بكل ما فيها.. يجب أن أخبرهم وأجعلهم يفهمون ذلك!»، لأنه لازال يريدك أن تستوعب أنه من كتّاب الكلاسيكيات، وكأنني أراك الآن تقول: «ولكن ماذا عن أسلوب (لام) الكلاسيكي الشهير؟ من أين أتى ذلك؟».

الفصل السادس

مسألة الأسلوب

عند مناقشة القيمة الفنية لكتب معينة، سمعت أناسًا من هؤلاء الأشخاص الذين يترددون في التعبير عن وجهات نظرهم حول الأدب في حضرة الأدباء يقولون ما يلي: «ربما يكون الكتاب سيئًا من وجهة النظر الأدبية، لكنه احتوى على أشياء جميلة»، «إن الأسلوب رديء جدًا إن صح القول، لكن الكتاب كان ممتعًا ومثيرًا بالفعل»، «أنا لست خبيرًا بالأدب، لذلك لا أزعج نفسي بمسألة الأسلوب وجودته، وكل ما يهمني هو جمال الموضوع، وعندما يتحقق لي ذلك، يمكن للنقاد إبداء إعجابهم بالكتاب حينها»، فالعديد من الملاحظات المماثلة تظهر أنه هنالك فكرة سائدة لدى معظم المتحدثين باسم الأدب مفادها بأن الأسلوب هو شيء مختلف عن الموضوع ومكمل له في الوقت ذاته، فالكاتب الذي يود أن يكتب الكلاسيكيات يجب أن يجد موضوعًا معينًا ثم يكسوه بأناقة بحلة الأسلوب لكي يتمكن من إرضاء ما يسمى نقاد الأدب.

ثمة مفهوم مغلوط هنا، فلا يمكننا تمييز الأسلوب عن الموضوع

فعندما يريد الكاتب إيصال فكرة معينة يستخدم الكلمات في ذلك، وصيغة الكلمات هذه هي التي تشكل أسلوبه وهي محكومة بالفكرة كليًا. فلا يمكن للفكرة أن تحيا دون الكلمات، ولا يمكن أن تكون إلا بصيغة واحدة من الكلمات، فلا يمكنك التعبير عن الشيء ذاته بصيغتين مختلفتين، فكلما غيرت بالتعبير قليلًا، اختلفت الفكرة إلى حدٍ معين.

ومن المؤكد أنه لا يمكن تغيير التعابير دون تغيير الشيء المراد التعبير عنه. فالكاتب الذي نقل الفكرة وعبر عنها ربما سيقوم «بصقلها» ولكن ما هو الشيء الذي سيصقله؟ إن القول بأن الكاتب سيصقل أسلوبه هو ذات القول بأنه سيصقل فكرته لأنه اكتشف أخطاءً وعيوبًا فيها، ويريد تقويمها فالفكرة تنشأ عندما يتم التعبير عنها وليس قبل ذلك. وهي تعبر عن نفسها، فإن كانت فكرة واضحة يتم التعبير عنها بوضوح، بينما يتم طرح الفكرة الغامضة بإبهام طبعًا، ولا حاجة لك سوى أن تأخذ بعين الاعتبار الحالة التي بين يديك.

طالما أن العلم هو تطور الفكر السليم، فإن الأدب هو تطور الخطاب اليومي المشترك، والفرق بين العلم والمنطق السليم هو ببساطة مشابه تمامًا للفرق بين الخطاب المشترك والأدب، فعندما تعي تمامًا ما الذي تفكر به ستنجح في التعبير عنه وفي فهم نفسك بينما سيتلعثم لسانك في التعبير عندما لا تستوعب ما الذي تفكر به. لاحظ أيضًا كيف أن صفات أسلوبك تتبع مزاجك في حياتك اليومية. كم ستكون ألفاظك رقيقة عندما تشعر بالحنان وكيف ستكون عنيفة عندما تكون أنت كذلك! ربما ستقول لنفسك في لحظات من

الانفعال العاطفي: «لو أنني أستطيع الكتابة!»، ستكون مخطئًا بذلك فحريٌ بك حينها أن تقول: «لو أنني أستطيع التفكير بهذا المستوى العالي!»، فعندما تفكر بوضوح لن تواجه أية صعوبات في قول ما تفكر به على الرغم من احتمالية إيجادك صعوبة في الاحتفاظ بهذه الأفكار لنفسك. وعندما تعجز عن التعبير عن نفسك انطلاقًا من عدم وجود شيء واضح لتعبر عنه وما يزعجك فعلًا هو ليس الرغبة غير المجدية في التعبير، إنما الرغبة غير المجدية في التفكير بطريقة أكثر وضوحًا. وكل تلك الأمثلة أدرجتها لك عزيزي القارئ، لأوضح لك أن الأسلوب والموضوع يكملان بعضهما البعض فهما يتشابهان ولا يمكن أن يتجزآن.

لا يمكنك طرح موضوع جيد بأسلوب رديء فلتنظر إلى هذه النقطة عن كثب فإذا رغب أحدهم في إيصال فكرة جيدة لك فسوف يوظف صيغة من الكلمات لشرحها وصيغة الكلمات هذه نسميها أسلوب.

بعد أن تقرأ ذلك ستقول: «إنها فكرة جيدة، لكن الأسلوب الذي طرحت به لم يكن كذلك!»، فالوسيلة الوحيدة للتواصل بينك وبين المؤلف هي الصيغة، فالفكرة الجيدة قد وصلت إليك، ولكن كيف؟ بصيغة الكلمات لأن الجمال يكمن في الكلمات، ربما ستقول حينها بتعالٍ: «لقد عبر الكاتب هنا عن نفسه بشكل غير مصقول، لكنني أعرف ما الذي يعنيه!»، إذ يمكننا الحكم على جودة العمل عن طريق جمال الكلمات وجودة الأسلوب. ففي حال لم يكن الأسلوب مصقولًا، فهل يمكنك الجزم بما يعنيه الكاتب؟

لا يمكنك ذلك بالطبع، لأن الرؤية ليست واضحة تمامًا أمامك، فالموضوع هو الذي يجب أن يلامسك ولابد أن يتأثر بالأسلوب الذي يتبعه الكاتب بشكل كبير.

ولازال فهم ماهية الأسلوب هدفًا صعب المنال إلى حدٍ ما. دعني أطلب منك أن تفكر في أسلوب كاتب معين بالطريقة ذاتها التي تفكر بها بإيماءات وعادات أحد معارفك. فربما تعرف رجلًا يتميز بسلوك هادئ وعاطفة جياشة. كيف لك أن تعرف أن لديه عواطف قوية؟ لأنه يكشف عن هذه العواطف عبر جزء بسيط، لكنه شديد الأهمية في سلوكه، كزم شفتيه وطقطقة أصابعه. فسلوك هذا الرجل في الواقع ليس هادئًا البتة. ولابد أنك أيضًا على معرفة برجل مهذب ومقبول لدى الجميع، لكن سلوكه لا يرضيك أبدًا، ولمَ ذلك؟ لأنه ممل وكريه ولأن تهذيبه وأدبه هذا لم يكونا حقيقيين. أنت تعرف أيضًا ذلك الرجل الضعيف الحييّ الأخرق الذي يترك لديك انطباعًا بالإجلال والقوة بالرغم من ذلك، لأن شيئًا من الإجلال قد امتزج بذلك الخجل والضعف الذي يتسم به هذا الرجل.

ويحدث أن يكون لديك زميل فظ خشن وتخمن بأن يكون حنونًا لأن هنالك شيء ما في نبرة صوته أو نظرات عينيه يوحي لك بذلك.

غالبًا ما يكون السلوك متوافقًا تمامًا مع الشخصية حتى لو بدا عكس ذلك في بعض الأحيان، فهو لا يتعارض أبدًا معها، إلا أن جزءًا من الشخصية يمكن أن يتعارض مع جزء آخر منها، لذلك

فالرجل الفظ يحمل صفات فظة والأخرق كذلك، وهذه الصفات تعتبر عيوبًا أو عللًا في شخصيته، والسلوك ببساطة يعبر عنها.

ويمكن لهذين الرجلين (الفظ والأخرق) أن يصبحا أفضل حالًا إذا ما حافظا على صفاتهما الحسنة، بينما حاولا اكتساب الصفات الظاهرية التي يمتلكها ذلك الرجل، الذي لم يكن يعجبك، كالسلاسة والقبول، والتي كانت تعجبك فيه، لكن ما لم يكن يعجبك هو صفاته الأخرى.

نتيجة لذلك، فإن الشخصية تظهر من خلال السلوك، والسلوك انعكاس للشخصية، فكلاهما يشبه الآخر، والأمر ذاته ينطبق على مسألة الموضوع والأسلوب، إذ يمكننا اعتبار الموضوع هو الشخصية، أما الأسلوب فهو السلوك الذي يظهر لنا تلك الشخصية. ربما ستقول إن سلوك ذلك الرجل الفظ لم يكن منصفًا لصفاته الحنونة، ولا أعتقد ذلك، لأن فظاظته متعبة حتى بالنسبة لزوجته، وبالرغم من أن لحظات الحنان والعطف كفيلة بجعلك وزوجته تنسيان ذلك، فهو فظ أكثر بكثير من كونه حنونًا، فسلوكه ببساطة منصف لشخصيته، لذا فعندما يزعجك كاتب ما على مدى عشر صفحات ثم يسحرك في عشر أسطر فقط، حريٌّ بك حينها ألا تستهين بأسلوبه وتدعي بأنه لم يساعد على إيصال الفكرة، وعليك أيضًا تذكر ذلك الرجل الفظ الحنون في الوقت ذاته، فكلما أمعنت النظر، اتضح لك أن عيوب ومحاسن الأسلوب هي ذاتها عيوب ومحاسن الموضوع، إن أحد أفضل التفسيرات لهذه الحقيقة المهملة لفتًا للانتباه هي تلك التي تتعلق بـ (توماس كارليل)، فكم من المرات قيل إن موضوع

(كارليل) كانت تفسده قسوة وغرابة أسلوبه!! لكن موضوعه قاسٍ وغريب بالقدر ذاته الذي كان فيه أسلوبه وشخصيته كذلك. إذ اتسم سلوكه بالسخف والمقت، وأحكامه بالغرابة إلى أبعد حد. فعندما تقرأ إحدى خطبه اللاذعة ستقول في نفسك حينئذٍ: «هذا رائع فإن حماس هذا الرجل من أجل العدالة والحق لأمر جليل!»، ولكنك ستقول أيضًا «إنه غير عادل وكاذب إلى حدٍ ما، فهو يغلي في المديح ويبالغ في التوبيخ والذم»، وهذه الأشياء لا علاقة لها بالأسلوب، بل بالموضوع. أما عندما يكون (كارليل) في أفضل حالاته فإنه يكون عاطفيًا وهادئًا وسيدفعك للقول حينها: «هذا هو كارليل الحقيقي» ولتلاحظ أيضًا كيف أصبح أسلوبه مثاليًا لا وجود فيه للفظاظة أو الغرابة. فإذا كان ذلك الموضوع الذي أعجبك إلى الحد الذي قلت فيه «هذا كارليل الحقيقي» هو لكارليل فإن الأسلوب الذي كتب فيه هو أسلوب «كارليل الحقيقي» أيضًا، لكنك عندما تقول «حقيقي» فمن الأنسب أن تقول إنه «الأفضل» أي: كارليل الأفضل. لو أن (كارليل) كان في أفضل حالاته دائمًا لاعتُبر من أفضل مبدعي العالم، لكنه كان خليطًا بين ذلك فكانت لديه أخطاء في الأسلوب لأنها كانت أخطاء في الموضوع بالأساس.

في الأدب الكلاسيكي ستجد دائمًا أن الأسلوب يتبع مزاج الموضوع لذلك تبدأ مقالة «حلم الأطفال» لـ (تشارلز لام) بسكون تام بطريقة سردية هادئة تنعشها عبارات معينة تتعلق بالأطفال وتصفهم، فعندما كان حقل الجدة هو محور الحديث، كان أسلوب الكاتب حزينًا، أما عندما انتقل ليوضح تأثير ذلك القصر القديم

أصبح أسلوبه أكثر جمالًا من قبل، ثمة مبالغة في وصف جمال الحديقة إلى حدٍ ما، لكن النقطة الحقيقية الفاصلة في المقالة تحدث عندما يتذكر (لام) أخاه الأكبر إذ يحدد تلك النقطة بعبارة: «ثم بنبرة مرتفعة أخبرته كيف...».. إلخ، حتى يبدأ أسلوب الكاتب بالتسارع بحماس ووقار إلى حين الوصول إلى ذروة المقالة: «بينما كنت أقف محدقًا خفتت صورة كلا الطفلين وبدأت بالانحسار شيئًا فشيئًا حتى لم يتبق في النهاية سوى ميزتين كئيبتين في أقصى مسافة، حيث أثرتا فيّ دون نطق أي كلمة كتأثير الكلام أو أكثر» ومن هنا نعرف أن الأسلوب يحكمه الموضوع دائمًا وأبدًا. إذ ربما تقول: «من المؤكد ذلك وإلا فالأمر سيصبح مثيرًا للسخرية، فالرجل الذي يمارس الحب بأسلوب رسمي وكأنه يلقي خطبة أو هذا الذي يقدم المواعظ وكأنه يغيظ تلاميذ المدرسة أو ذاك الذي يتحدث عن الموت وكأنه يلقي على مسامع مَنْ حوله نكتة طريفة لابد وأنهم إما مجانين أو مغفلون»، فأنت بهذا قمت باختصار المسألة عندما استبعدت مشكلة الأسلوب بقدر ما استطعت، ولكن ما الذي يعنيه أولئك الذين يقولون ما يلي: «إننا نقرأ لهذا الكاتب أو ذاك نظرًا لجمال أسلوبه فقط؟»، فأنا شخصيًا لا أعرف تمامًا ما الذي يقصدونه بذلك، ولم أستطع جعلهم يشرحون لي قصدهم، سوى أنهم يقرؤون من أجل جمال صوت الكلمات فقط، فعندما تقرأ كتابًا ثمة ثلاثة أشياء ربما عليك أن تأخذها بعين الاعتبار، ألا وهي:

أولًا: أهمية الكلمات والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأفكار.

ثانيًا: المظهر العام لطباعة الكلمات، ولا أعني بذلك أن يقوم

القارئ بالقراءة لأي كاتب من أجل جمال طباعة الكلمات على الصفحات.

ثالثا: صوت الكلمات التي إما أن تلفظ أو أن يتم تخيل ايقاعها حين تلفظ ذهنيًا. ومما لا شك فيه الآن أن الكلمات تختلف عن بعضها من حيث جمالية أصواتها، فبالنسبة لي تعتبر كلمة «pavement بمعنى رصيف» من أجمل الكلمات في اللغة الإنجليزية. قم بلفظها ودراسة أحرفها الصوتية، ثم انظر ما رأيك بها. ولا شك أيضًا أن مجموعات معينة من الكلمات تمتلك جمالًا لفظيًا أكثر من مجموعات أخرى، لذلك يخبرنا الشاعر (الفريد تينسون) أن أجمل بيت شعر كتبه كان التالي:

طائر «الدج المطوق» اليانع يغرد في شجر الدردار.

لقد أحدثت تلك العبارة تتابعًا صوتيًا جميلًا، حيث ذكّرت القارئ بصوت ذلك الطائر الذي كانت تصفه. ولكن هل ستحيا في الذاكرة كواحدة من أفضل العبارات التي كتبها (تينسون) وأكثرها ندرة؟ بالطبع لا، لأنها كانت تمتلك سحرًا لكن هذا السحر ببساطة كان جميلًا وطريفًا، فالقصيدة بأكملها مكونة من أبيات متعددة لا تحمل في طياتها أية توصيات أكثر من ذلك البيت الذي ذكرناه آنفًا والذي لن يثير الاهتمام بشكل دائم فسوف يكون أشبه بامرأة جميلة لا تمتلك شيئًا آخر يكمن خلف جمالها أبدًا. وربما على المرء أن يلاحظ أن السحر اللفظي لـ (تينسون) قد فقد بريقه بالنسبة لنا، فمن ذا الذي سيعتبر «ملحمة أنشودة الملك» عملًا فنيًا مميزًا؟ فمن

بين آلاف السطور التي تطرب لها الآذان من كتابات (تينسون) لم تبق سوى هذه السطور المشحونة بالعواطف.

سأقول «لا» لذلك القارئ الذي يصرح بأنه سيقرأ لمؤلف ما، إعجابًا بأسلوبه فقط، فلديّ اعتقاد بأنه سيملّ من ذلك الكاتب بعد فترة وجيزة أو أنه يخدع نفسه بذلك التصرف، فهو يقصد المزاج العام للمؤلف وليس أسلوبه اللفظي، بل صفة يتميز بها الموضوع الذي يطرحه هذا المؤلف، كما هو الحال عندما يعجب المرء بأحدهم لشيء ما، لا أحد يستطيع تحديده أو معرفته لأنه ينبع من جوهر ذلك الرجل.

فعند الحكم على أسلوب مؤلف ما عليك أن تستخدم الشرائع ذاتها التي تحكم بها على البشر، عندها لن تهتم بتعليق أهمية كبيرة على الأمور التافهة التي لا قيمة لها.

لا يوجد صداقة دائمة دون احترام، فإن كان أسلوب الكاتب لا يجبرك على احترامه بالرغم من المتعة التي تكتسبها عند قراءتك له، سيكون من المؤكد أن هنالك خطأ ما في موضوعه، وأن تلك المتعة ستزول قريبًا، إذ يجب عليك اختبار مشاعرك تجاه كاتبٍ ما، فإن كنت تشعر بالمتعة عندما تقرأ له دون أن تركز على شيء آخر سوى جمال وتناغم الكلمات، تخيل فقط كيف ستكون مشاعرك بعد قضاء عطلتك الشهرية بالقراءة لكاتب تطرب كلماته الآذان فإن أعجبك أسلوبه لكنه لم يقدم لك شيئًا سوى جعلك تقهقه ضاحكًا فلتفكر بالضجر الذي يسببه لك هذا الكاتب الذي لا يجيد سوى الدعابة.

من جانب آخر، إذا تأثرت بما قاله أحد الكتّاب لكنك مدرك لهشاشة التعبير التي تبدو في عمله، فعليك أن تقلق بشأن رداءة أسلوبه بالقدر ذاته الذي تقلق فيه بشأن تصرفات صديقك الودود الفطن الذي كان يشكل خطرًا على السجاد في صالة الاستقبال بكوب الشاي الذي كان يحمله، فتصرفه بتلك الطريقة كان مؤسفًا إلى حدٍ ما، لكنك لن تجرؤ على مصارحته بذلك.

ومجددًا أقول إنه إذا أبهرك أسلوب كاتب ما فورًا وأعماك عن كل شيء سوى عن تألقه، فلتسأل نفسك قبل أن تعجب بموضوعه الذي يطرحه كيف سيكون رأيك برجل قدم نفسه إليك في لقائكما الأول بطريقة هجومية، مما يؤكد أن الأشخاص الذين يلفتون انتباهك غالبًا ما يقدمون أنفسهم إليك بطريقة تدريجية، إذ لا يبدؤون الاحتفال بالألعاب النارية فورًا. باختصار، انظر إلى الأدب كنظرتك للحياة ولن تخفق في استيعاب أن الأسلوب الذي يتبعه الكاتب في كتاباته هو الكاتب نفسه، ولا ريب أنك لن تجزم بأنك لا تأبه بالأسلوب وبأن استمتاعك بموضوع يطرحه كاتب ما لا يتأثر بأسلوبه ولن تجزم أيضًا أن الأسلوب وحده كافٍ بالنسبة إليك.

إذا كنت مترددًا حول مسألة الأسلوب، سواءً كنت تميل إلى الأسلوب المفضل أو غير المفضل بالنسبة لك، فإن التصرف الأكثر حكمة هنا هو تناسي وجود الأسلوب الأدبي على الإطلاق وذلك لأن الأسلوب تم استيعابه من قبل غالبية القراء الذين لم يحاولوا تحليل انطباعاتهم تحت تأثير الأدب لذلك فإنه لا يوجد ما يسمى أسلوبًا أدبيًا.

لا يمكنك تقسيم الأدب إلى قسمين وتسمية أحدهما بالأسلوب والآخر بالموضوع، فأهمية وقيمة الأدب يمكن فهمها وتقييمها بالطريقة ذاتها، التي يتم فيها فهم وتقييم أية ظاهرة أخرى، وذلك عن طريق تدريب المنطق والحس السليم الذي سيعلمك أنه لا يمكن لأي شخص، حتى العبقري، أن يكون مبتذلًا ومميزًا أو جميلًا وقبيحًا، أو دقيقًا ومبهمًا، أو حنونًا وقاسيًا في الوقت ذاته. فالمنطق أيضًا يعلمك أن السعي لخلق تناقضات حيوية بين الموضوع والأسلوب أمر غير معقول، فعندما يكون هناك تناقض كبير فإن إحدى هاتين الصفتين المتناقضتين ستكون أقلّ أهمية من الأخرى. إذا قمت بربط الأدب بقواعد الحياة فإن المنطق والتفكير السليم سيحدد لك أي من الصفتين ستحظى بتقديرك أكثر، حينها لن تقع في خطأ تقييم ضعيف للموضوع بسبب صفة حسنة جذبتك في شخصية ما أو لأن سلوكًا حسنًا قد جعلك تغفل عن ثغرة كبيرة في الموضوع، فعندما يعتريك الشك دع عنك أسلوب الكاتب وفكّر بالموضوع كما لو أنك تفكّر بشخص ما.

الفصل السابع
صراع مع مؤلف

بعد أن حسمنا، بقدر ما هو ممكن وضروري، مسألة كبيرة كالأسلوب لنعد الآن إلى (تشارلز لام) الذي كانت مقالته «حلم الأطفال» السبب الرئيسي الذي حثنا للبحث في مسألة الأسلوب، وبما أننا بدأنا مع (لام) فمن الأفضل أن يكون الختام به أيضًا.

في المراحل الأولى لتكوين الثقافة الأدبية للفرد، لا يوجد شيء أكثر نفعًا، لغرس الاهتمام بالأدب وإبقائه متّقدًا، من تخصيص وقت لكاتب معين، وتحديدًا لكاتب «إنسان» بصدق وفضول (لام)، ولا أعني هنا أن تحبس نفسك في دائرة الأعمال الكاملة لـ (لام) لمدة ثلاثة أشهر دون أن تقرأ لأي مؤلف آخر، بل أعني أن تكرّس، بانتظام، بعضًا من أوقات فراغك لدراسة كل أعماله وما يتعلق به من أعمال أخرى لكتّاب آخرين «يمكنك شراء الأعمال الكاملة في الشعر والنثر لـ (تشارلز وماري لام) والذي كتبه الخبير المميز (توماس هتشيسون) وتمت طباعته من قبل مطابع جامعة أكسفورد بمجلدين وسعرهما أربعة شلن».

لا يوجد ما يمنعك من أن تكون خبيرًا متواضعًا بأعمال (لام) التي لا تعتبر ضخمة ولا صعبة، بل غالبًا ما تكون إما ممتعة أو مؤثرة والأهم من كل هذا هو أن (لام) مدمن للأدب فلا يمكنك أن تعجب به دون أن تحب الأدب بشكل عام، ولا يمكنك كذلك أن تقرأ له دون أن تتعلم شيئًا عن الأدب أيضًا، ذلك لأن الكتب هوايته بالإضافة إلى كونه ناقد من الدرجة الأولى. كما أن حروفه تفيض بالأدب فإن قرأتها لن تغيرك فقط، باعتبارها تحمل في طياتها الرسائل والعبر الأمثل، بل عليك أن تستنبط منها إضاءات أكثر على بعض أعماله الأخرى التي اعتبرها كالمقررات الدراسية التثقيفية والتي أنصحك بها بشدة، مما يعني قدرًا لا بأس به من الجهد المتواصل والحزم والإقدام وربما مزيدًا من الجهد الفكري الذي يفوق ذلك الذي تقوم به عند قراءة صحيفة يومية. مما يعني في واقع الأمر «العمل ثم العمل» وربما لم نتفق في البداية على العمل، لكنني أعتقد أن الذوق الأدبي لا يمكن أن يتكون بشكل مرضٍ دون أن يكون القارئ جاهزًا لبذل قصارى جهده من أجل ذلك. وربما سأبشرك من باب التشجيع، أنه بالإضافة إلى مزايا الإلمام بالأعمال المميزة وتنامي المعرفة الأدبية والتعرف على الجو «الكتبي» الحقيقي والإحساس بالأشياء التي ستشتق منها دراسة شاملة لتشارلز لام، ستدرك أيضًا أنك ستجني فوائد معنوية روحية تعتبر أكثر أهمية وإلهامًا وتتمثل بمعرفة شيء ما عن شيء آخر.

ستكون بذلك قد أنجزت خطوة معينة إذ ستعي تمامًا أنك وبكل فخر قد أصبحت بمكانة، تشبه مكانة الخبير، تسمح لك

بتقييم كل ما ستسمعه أو تقرأه في المستقبل فيما يتعلق بتشارلز لام، وهذا الشعور بالفخر والإحساس بالإنجاز سيدفعك للمضي قدمًا ويولد لديك حافزًا للاستمرار وأنا شخصيًا أعتبر أن هذه الفائدة المعنوية غير المباشرة تفوق الفوائد الأدبية المباشرة.

والآن، يجب ألا أغفل عن النتيجة الممكنة لصلتك القوية بتشارلز لام، إذ من الممكن أن يخيب أملك به ولو بشكل جزئي، إذ ربما ستكون قد توقعت أن تجد في أعماله مزيدًا من البهجة والفرح، وقد تطرقت في فصل سابق لمسألة الإحساس بخيبة الأمل، والتي تأتي عادة بعد التعاطي الأول مع الكلاسيكيات فالقارئ الجديد سيكون عرضة لمثل هذا الشعور الذي لا يمكن وصفه سوى بالممل. ربما تكون قد وجدت أن (لام) ليس مسليًا وممتعًا بالقدر الذي توقعته سابقًا وربما عليك أيضًا أن تحاول أن تحمس نفسك مرة أخرى لقراءة أعماله من جديد. باختصار، فإن (لام) لم يبرر لك سبب سمعته العظيمة تلك.

إذا كان العمل الكلاسيكي يعتبر كذلك عندما يقدم متعة للأجيال المتلاحقة من القراء الشغوفين بالأدب، وإذا كان (لام) يصدمك دائمًا بكونه مملًا فلا شك أن هناك خطأ ما ويجب علينا مواجهة هذا العائق الذي سيأخذنا إلى جوهر عملية تكوين الذوق الأدبي. في حال كان ذوقك كلاسيكيًا، سوف تكتشف في أعمال (لام) سحرًا متواصلًا، بينما يكون في الواقع ما اكتشفته في أعمال (لام) ليس سوى رتابة غير مستحبة تنعشها طرافة غريبة وعواطف

متفرقة. ووفقًا للنظرية، عليك أن تكون متحمسًا لكنك لست مبالٍ وفاتر إلى حد ما، فنحن أمام ثغرة هنا، لكن كيف يمكننا تجاوزها؟

لتجاوز هذه الثغرة نحتاج لمزيد من الوقت والجهد فالاعتبارات التالية ربما تساعد في ذلك:

بدايةً، يجب أن نضع نصب أعيننا أنه عند الدخول في عالم الكلاسيكيات بشكل عام وعالم (تشارلز لام) بشكل خاص فإننا أمام عالم من التفوق الفكري، فما الذي يحدث عادة في حالة كهذه؟

يمكننا تقييم ذلك بتذكر ما يحدث عندما نصادف شخصًا ذا مستوى فكري أدنى فنقول أشياء لا يفهمها، نمزح ولا يبتسم، ما يجعله يضحك بصوتٍ عالٍ يبدو لنا مثيرًا للضوضاء وسخيفًا، فهو لا يرى الجمال الذي يفتننا، لكنه بالمقابل يهيم بما نعتبره جافًا، كما أن الحقائق العميقة بالنسبة له نعتبرها أمرًا مبتذلًا. فتصوراته فظة، وتصوراتنا رقيقة. ونحن نحاول جعله يفهم ويرى، فإن أدرك مدى تدني مستواه الفكري سنكون قد حققنا بعض النجاح، ولكن في حال لم يدرك «قصوره الفكري» فسوف نصمت ونغادر على الفور لنتركه وحيدًا وهو راضٍ عن نفسه، مع قناعتنا أنه لا يمكن فعل أي شيء معه.

لقد مررنا جميعًا بتجربة التدني الفكري هذه، لأن التدني الفكري موجود بشكل دائم كوجود شعور تدني السعادة الذي نشعر به دائمًا. والحكمة الحقيقية وراء القرب من الكلاسيكيات هي وضع أنفسنا في موضع التدني الفكري والوعي الكامل به والتجرد الفعلي من

غرورنا وقلقنا للارتقاء فوق ذلك التدني بالإضافة إلى تذكر ذلك الشخص الميؤوس منه الذي لا يدرك أبدًا مدى تدنيه الفكري.

إن موقفنا تجاه (لام) يجب أن يكون كالتالي: «إن تشارلز لام أعظم مني وأكثر ذكاء وفطنة وأكثر دقة وروعة وأقوى ثقافة وأكثر توقًا للجمال، وعليّ أن أستعد لأسير على نهجه». فموقفنا يجب أن يشبه ذلك الذي يرهف أذنيه ليستمع لصوت بعيد بكل روحه، ولكي نسمع ذلك الصوت علينا أن نستمع جيدًا، مما يعني أن نقرأ بعناية وبطء وتمعن بالاعتماد على مَلَكة النظر التي حبانا الله بها. يجب على القارئ أن يتودد للكلاسيكيات فهي تستحق ذلك، كما يجب أن يترفع عن أي مساعدة فأنا لا أحبذ دراسة نقد الكلاسيكيات قبل قراءة الكلاسيكيات نفسها فلدي قناعة بأن تتم دراسة العمل الكلاسيكي والسيرة الذاتية لمؤلفه معًا ومن ثم قراءة النقد الخاص بالعمل فيما بعد.

وأعتقد أن من الضروري عند إعادة طباعة الكلاسيكيات أن يتم وضع المقدمة النقدية في نهاية الكتاب وليس في بدايته كما هو سائد من قبل، إذ يجب السماح لكاتب الكلاسيكيات بأن يضع بصمته الخاصة، مهما كانت ضعيفة، على عقل القارئ الخام، ثم يمكن بعد ذلك قراءة النقد التحليلي للعمل بالقدر الذي يريده القارئ، فالنقد التحليلي مفيد جدًا كفائدة التأمل للنفس إذ يمكن أن يسلط الضوء بومضة واحدة على الموضوع بأكمله.

أما وجهة نظري الثانية فيما يتعلق بمساعدة القارئ في عبور

تلك الثغرة فهي تتعلق بنوعية المتعة التي يجنيها القارئ من قراءته للكلاسيكيات فهي متعة هادئة وقوية لكنها بعيدة كل البعد عن فكرة العنف، فالمتع الفنية للفكر غير المثقف غالبًا ما تكون عنيفة وصاخبة، فهي تبدأ بالمبالغة في التعامل، وعدم التوازن وفي وضع أهمية كبيرة لأحد المظاهر السطحية، على الأغلب، في حين إهمال المظاهر الأخرى تمامًا فهذه المتع تتسم بحدتها ووضوحها كمتعة تذوق صوص «وورستر» اللاذع.

إذا كان هنالك قاسم مشترك بين جميع الكلاسيكيات فهو غياب عنصر المبالغة، فالفكر المتوازن والعقل السليم يجعل من المبالغة أمرًا مستحيلًا، وبالتالي تجنب تشويه العمل إذ يكمن جمال الكلاسيكيات في قدرتها على سرقة تفكيرك بهدوء تام دون أن تعصف بك مرة واحدة، ولدي قناعة بأن العديد من الطلاب المجتهدين تعرضوا للإحباط في المراحل الأولى لقراءة الكلاسيكيات، لأنهم توقعوا نوعًا آخر من المتعة فقد تركوا تلك المتع الصاخبة للفكر غير المثقف، وفقدوا بذلك نكهتها الحادة عند قراءتهم للكلاسيكيات، وعليهم أن يعلموا أن الانغماس في (الحدّة) يعني الفقدان التام للإحساس حتى بتلك الحدّة ذاتها فلا يمكن للفظاظة والرقة أن يكونا معًا، فعليهم الاختيار بينهما واضعين نصب أعينهم أنه بينما تقتل الفظاظة المتعة، فإن الرقة تزيدها قوة وحدّة.

الفصل الثامن

طريقة للقراءة

والآن، بعد أن أبحرت في بحر الأدب وطفوت على سطحه وارتفعت مرساتك عاليًا أعتقد بأنني قدمت لك تحذيرات كافية تجاه المخاطر والإحباطات التي تنتظر القارئ الغر وشديد التفاؤل، فالمشروع الذي ترتبط به ليس بالسهل ولا قصير الأمد، وأظن بأنني قد ذكرت بأنك ستمر بساعات كارثية ستميل فيها للتنبؤ بكل محتوى الكتاب وربما حتى بمخترع الطباعة، لكنك إذا أصبحت تستلطف (لام) وكنت تعرفه أو تعرف جزءًا من مؤلفاته وتمكنت من تكوين صورة له في مخيلتك واستطعت، إن صح القول، أن تسمع تمتمته عند قراءتك لأحد أعماله أو مقالاته، حينها ستكون في حالة ملائمة للمضي قدمًا إلى الأمام وتريد أن تعرف في أي اتجاه ستمضي. وكأنني سمعت الآن همستك المليئة بالذعر والرفض والتي تقول فيها: «آمل حقًا ألا يصف لي مقررًا للأدب الإنجليزي لأنني أشعر بعدم قدرتي على ذلك».

أود أن أطمئنك عزيزي القارئ أنني لن أفعل ذلك، فإن كنت

تأمل أن تكون محاضرًا في الجامعة للأدب الإنجليزي في المستقبل فعليّ حينها أن أصف لك شيئًا صارمًا وباعثًا على الكآبة ولكن بما أن هدفك، على حد علمي، هو اكتساب الشكل الأسمى والأقوى من المتعة الفنية بقدر المستطاع، فعلي ألا أصف لك أية مقررات اعتيادية، بل أن أتجرأ لنصحك بالعدول عن أي عمل من هذا النوع.

لا يوجد قارئ مبتدئ يمكنه متابعة مقرر تاريخي في الأدب دون هدر الكثير من الوقت لاكتساب المعرفة المجردة من أي متعة أو فائدة، ففي خيار القراءة يجب أخذ آراء الفرد وميوله في الحسبان، ذلك لأن الميول هي المؤشر الحقيقي للشخصية، وعليك حينئذٍ أن تقف بتحدٍ على قدميك وألا تبرر لنفسك أمام نفسك فأنت لم تخلق من أجل تعظيم الأدب بأن تصبح موسوعة له، بل الأدب هو الذي خلق من أجل خدمتك فأنت محور هذا الأدب أينما كنت. ومع ذلك، فلمصلحتك الشخصية، عليك أن تلزم نفسك بقراءة الأعمال المعروفة من الكلاسيكيات لفترات طويلة للأسباب آنفة الذكر. وبالرغم من عدم وجوب اتّباع مقرر معين، إلا أنه يجب عليك اعتماد طريقة أو قاعدة تسير عليها، والطريقة التي أقترحها لك تتجسد في نصيحتي التالية: «دع شيئًا ما يقود إلى آخر، ففي بحر الأدب تتواصل الأجزاء ببعضها البعض فأحدها يوصل إلى الآخر، فليس ثمة أية حواجز بينها».

ونظرًا لذلك فقد أوصيتك بالبدء بـ (تشارلز لام) لأنه يقوم، عندما تقرأ له، بخلق علاقات بينك وبين العديد من الكتّاب البارزين الذين يمكن أن تكون قريبًا منهم أيضًا، مما يعود عليك

بالفائدة والنفع بكل تأكيد. ومن بين هؤلاء (ويليام ووردزوورث) و(صموائيل كولريدج) و(روبرت ساوذي) و(وليم هازلت) و(لي هنت). لا يمكنك أن تعرف (لام) دون معرفة هؤلاء الكتّاب الذين يحظى بعضهم بأهمية كبيرة، وبدءًا من دائرة أعمال (لام) ستجد أنك تنحرف عن نقاط معينة وفقًا لميولك الخاصة. فإذا كنت، مثلًا، ميالًا للشعر، فلا يمكنك اختيار بداية أفضل في الأدب الإنجليزي كله من أشعار (ويليام ووردزوورث) الذي سيعود بك لفهم كافة الشعراء الذين كانوا ينافسونه آنذاك. وعندما تلمّ بالقصص الشعرية لكل من (ووردزوورث) و(كولريدج) ستكون حينها في مكانة تسمح لك بتقييم الشعر بشكل عام.

ومرة أخرى، إذا اشتقت لأدب أكثر متعة ورومانسية فإن (لام) قد أرشدك بطريقة ساحرة إلى بحر مترامِ الأطراف في الأدب ألا وهو (شكسبير) وذلك في كتابه المعنون بـ «نماذج للقصائد المسرحية المعاصرة لشكسبير» أما بالنسبة لـ (هازلت) و(لي هنت) فسوف تكتشف كاتبين للمقالة لا يسبقهما سوى (لام) نفسه وناقدين لا يستهان بهما، فـ(هازلت) ناقد لا مثيل له تميز بأحكامه المقنعة والمنطقية وحماسه تجاه الطبيعة الساحرة. وبمجرد وصولك إلى (هازلت) و(لي هنت) يمكنك التفرع مرة أخرى إلى واحدة من العشرة آلاف نقطة الأخرى التي تفضي إلى دوائر أكبر، إذ يمكنك المتابعة بين القرون كما تشاء حتى لو وصلت إلى (جيفري تشوسر) فإن كانت الفرصة سانحة لقراءة كتاب (تشوسر وسبنسر) لمؤلفه (ويليام هازلت) فربما سترتدي قبعتك في الحال وتخرج لشراء شيء لهؤلاء الكتّاب، ولا

حاجة لي بالتخصيص والتوضيح بشكل أكبر فبدءًا من (لام) ومن سماحك لشيء ما بأن يوصلك إلى آخر، لا يمكنك سوى أن تتأثر بذلك التناغم العجيب لمعاصري (لام) والحقبة الزمنية التي عاش بها مع احتياجاتك، ذلك لأن (لام) عاش في فترة نهضة للأدب الإنجليزي. فـ(ووردزوورث) و(كولريدج) أعادا إحياء الشعر بينما عمل (والتر سكوت) على إحياء الرواية وتفرغ (تشارلز لام) لإعادة الروح للوثائق الإنسانية، أما (هازلت) و(كولريدج) وغيرهما فقد ساهموا بنهضة النقد الأدبي. فثمة شرارات تملأ المكان بأكمله، وإنها لمعجزة إذا لم يشتعل فيك شيء أبدي متوهج بعد كل هذا. ولدي تحذير واحد لأقوله لك هنا، وهو أنك ربما ستقول لنفسك ما يلي: «طالما لازمت الكلاسيكيات فلن أخطئ أبدًا» وبدوري سأقول لك عكس ذلك، فإن لم تقرأ سوى المؤلفات القيمة، فإنك تقترف خطأ فادحًا بقراءتك لنوع واحد من الأدب. فهناك نوعان للأدب لا ثالث لهما، وهما ليسا الشعر والنثر، ولا هما النوعان اللذان يختلفان عن بعضهما باختلاف الصيغة أو الموضوع، بل هما النوع الملهم والنوع التقريري ولا يوجد تقسيم حقيقي آخر في الأدب سوى هذا التقسيم، وأعتقد بأن (رالف إمرسون) هو أول من وضح هذا التقسيم، حيث قسّم الأدب إلى «أدب القوة» و«أدب المعرفة». وقد وُجدت هاتان الصفتان في كل الأعمال العظيمة سويةً، لكن إحدى هاتين الصفتين كانت تفوق الأخرى عادةً، وخير مثال على الأدب الملهم هي قصيدة «قبلاي خان» لـ (كولريدج). ولا يرد إلى ذهني أي مثال عن النوع التقريري حاليًا، لكن أقرب مثال يمكن أن أسميه

هو كتاب «المبادئ الأولى» لـ (سبنسر) الذي يعتبر بطبيعة الحال كتابًا ملهمًا للغاية أيضًا، وهناك مثال آخر للنوع الذي تطغى فيه الصفة الملهمة وهو رواية «إيفانهو أو الفارس الأسود»، أما بالنسبة للنوع الآخر من الأدب الذي تهيمن فيه الخاصية التقريرية فمقالات (هازلت) في «شخصيات شكسبير» هي خير مثال لذلك. وعليك عزيزي القارئ، ألا تعطي الأولوية المفرطة لأي من النوعين، فكثرة قراءتك للأدب الملهم يمكن أن تجعلك هشًا وضعيفًا، بينما يمكن للمبالغة في قراءة الأدب التقريري أن تجعل منك شخصًا قاسيًا وجافًا، فالمثابرة على النوع الأول ربما تجعلك منغمسًا في عواطفك بشكل كبير، بينما إذا لازمت قراءة النوع الثاني فربما ستتوقف عن العيش بالمعنى الكامل لأنك ستتخلى عن عواطفك تمامًا، ولا أعني بذلك أن تحافظ على التوازن التام بين كلا النوعين فذوقك هو الذي سيرجح كفة الميزان لصالح أحدهما، وما أقوله فقط هو أنه لا يجب إهمال أي منهما على حساب الآخر.

يعتبر (تشارلز لام) مثالًا لمؤلف رائع يحظى بتقدير غالبية الأشخاص الذين يهتمون بالأدب ويمكن لأي شخص عادي أن يفهمه فهو لا يبالغ في تطلباته على المستوى الفكري ولا على المستوى العاطفي. بالإضافة إلى ذلك، فإنه في كلا جانبي الأدب، ينطوي أدب أكثر صعوبة وغموضًا لدى (لام) فجانب «المعرفة» يمكن فهمه بالتركيز والمثابرة بيد أن جانب «القوة» الذي يضم النتاج الأدبي الأكثر روعة، يتطلب من قارئه اعتبارات خاصة. ربما ستصل إلى مرحلة الاستمتاع التام بأعمال (لام)، لكنك لم تصل بعد إلى رؤية أي

شيء من أعمال أخرى كقصيدة «قبلاي خان» أو قصيدة «كومس» لـ (جون ملتون). أما بالنسبة لمسرحية «هاملت» فربما لن تراها سوى قصة دامية مليئة بالاقتباسات، بيد أن روائع الأدب هي وحدها القادرة على وهب المتعة الفائقة لقارئها بشرط حصوله على مفتاح العبور الخاص بذلك وهذا المفتاح هو فهم طبيعة الشعر.

الفصل التاسع
الشعر

ثمة كلمة اسمها مخيف تثير الرعب في نفوس الغالبية العظمى من المثقفين من متحدثي اللغة الإنجليزية، إذ يتجنب أكثرهم شجاعة حتى نطقها، بينما يعتمد عليها بعيدو النظر من هؤلاء، أما أكثرهم تهورًا فلن يجرؤوا على مواجهتها البتة، وبالنسبة لي فإنني أراها كالمبنى الفارغ المزدحم في الوقت ذاته، وأعلم بقدرتها على تفريق الحشود بطريقة أسرع من أنابيب المياه والزمامير وصافرات الإنذار أو حتى إشاعة انتشار وباء قاتل مثلًا، فمجرد همسها يساعد على تحمل العزلة والتكبر والازدراء، وربما الجوع أيضًا، كما تظهر لنا الأمثلة عبر التاريخ، وهذه الكلمة هي «الشعر».

إن الرفض العميق للشعر بالنسبة للشخص المتوسط نادرًا ما يكون مبالغًا فيه، وعندما أقول الشخص المتوسط فأنا لا أعني بذلك المعنى الحسي للكلمة، بل أقصد الرجل متوسط الثقافة الذي يهتم قليلًا بالكتب ويستمتع بالقراءة ويعرف الكلاسيكيات بأسمائها وكبار الكتّاب بقراءته لبعض أعمالهم. ولديّ قناعة بأن واحدًا

من عشرة أشخاص ممن يقرؤون بشكل عام، يقرأ الشعر بدراية وتمعن، كما أنني أمتلك قناعة أكبر بأن أقل من واحد من أصل عشرة أشخاص، ممن يقومون بشراء كتب الشعر، يقوم بقراءته، ستجد الكثير ممن يقرؤون النثر دائما لكنهم يقولون لك بكل بساطة: «لا أقرأ الشعر إطلاقًا»، إذا كانت مبيعات الشعر الحديث، إن صح وصفها على هذا النحو، ستتوقف تمامًا في المستقبل فلن يفلس الناشر، لأنه نادرًا ما يتأثر، ولن يموت الشاعر أيضًا لأنني لا أظن أن شاعرًا إنجليزيًا معاصرًا يمكن أن يعيش على الدخل الآني لشعره. إن وضعا كهذا يعتبر غريبًا جدًا بالنسبة لأمّة تمتلك نتاجًا شعريًا يعد الأعظم في العالم، وما يجعله أكثر غرابة هو أن القارئ متوسط الثقافة قد يصبح لديه نوبة من الحب أو الشغف تجاه أحد كبار الشعراء فيشتري كتبه بعشرات الآلاف، وربما سيصرف على ذلك مبالغ طائلة كما هو الحال مع الشاعر (الفريد تينسون)، أما الأمر الذي مازال غريبًا هو أن ذلك القارئ متوسط الثقافة، بعد كل ذلك، لا يكره الشعر، لكنه يكرهه فقط عندما يأخذ صيغة معينة، إذ سيقرأ الشعر ويستمتع به دون أن يعي بأن ذلك شعرًا، فالشعر يمكن أن يكون شعرًا عموميًا أو أن يأتي بطريقة النثر، فإن قدمنا شعرًا مستترًا بصيغة النثر لذلك القارئ فهنالك فرصة كبيرة بأن يخلع خوفه ويقدر ما قدمناه له، ولكن إذا ما أعطيناه صفحة من الشعر العمودي فلا عجب أن يطلب لنا الشرطة. والسبب في ذلك هو أنه بالرغم من تقسيم الشعر إلى عمودي ونثري إلا أن صيغة الشعر العمودي هي التي تأتي غالبًا أكثر من صيغة النثر، فالغالبية العظمى من أفضل

الأعمال الشعرية جاءت بتلك الصيغة وهذا ما يميزها عن غيرها من الأعمال الأخرى فلا يتمكن من فهمها وتذوقها سوى أولئك الذين وضعوا أنفسهم في منزلة فكرية جديرة بالاعتبار، بينما لا يمثل ذلك بالنسبة لغيرهم سوى مللًا ساخطًا ولهذا نشأ الخوف من تحيز القارئ متوسط الثقافة إزاء الصيغة الشعرية. إن تكوين الذوق الأدبي لا يمكن أن يكتمل ما لم يتم التغلب على هذا التحيز فمهمتي البالغة الصعوبة هنا هي اقتراح وسيلة للتغلب على هذا التحيز ودحره، وحديثي موجه بشكل خاص إلى شريحة كبيرة من الناس الذين، إن كانوا صادقين مع أنفسهم، يستمتعون بقراءة الروايات والمقالات وحتى كتب التاريخ، بينما لا يطيقون الشعر، فحالة كهذه هي حالة حساسة جدًا كغيرها من الحالات المزاجية الأخرى، فلا جدوى من توظيف فن التفكير في مسائل كهذه تتجاوز حدود المنطق، لأنها مسألة فطرية، ومن غير المجدي أن أؤكد لك عزيزي القارئ بأن الشعر العمودي يقدم لك متعة أكبر من تلك التي يقدمها الشعر النثري، حينها ستجيب قائلا: «نحن نصدقك لكن أمرًا كهذا لا يجدي بالنسبة إلينا»، وليس عليّ أن أجادلك في ذلك، بل سأغامر في وصف علاج شافٍ لحالتك، فالأطباء لا يجادلون مرضاهم، فأرجو منك تطبيق وصفتي تلك بحذافيرها بالإضافة إلى الحفاظ على هدوئك، ففقدان السيطرة على النفس سيقودك للذعر الذي سيكون قاتلًا.

أولًا: حاول أن تتناسى بقدر الإمكان كل الأفكار الحاضرة في ذهنك حول طبيعة النظم والشعر كما لو أنك تمسح كل القوائم في

ذهنك بمنديل أو بقطعة من الإسفنج ولا ترهق نفسك بالتفكير في أوزان الشعر وصيغه إطلاقًا.

ثانيًا: اقرأ مقالة «أضواء على الشعر بشكل عام» للكاتب (ويليام هازلت) فهذه المقالة هي الأولى في كتابه المعنون باسم «محاضرات عن شعراء اللغة الإنجليزية» والذي يمكن شراؤه بصيغ متعددة وأعتقد بأن الطبعة الأكثر شهرة والأقل ثمنًا هي طبعة (المكتبة العالمية الحديثة) لدار (روتلدج للنشر وسعرها سنت واحد فقط) ومن المحتمل أن أكون قد كتبت مقالة بنفسي عن الطبيعة المسالمة للشعر بشكل عام، ولكنها ليست سوى محاكاة لمقالة (هازلت) الذي وضع حقيقة الشعر بقالب ممتع وواضح ومؤكد بالطريقة ذاتها التي سيتبعها الجميع.

وعلى أية حال، فلا أتوقع منك أن تتمكن من استيعاب كامل الرسالة التي تحملها تلك المقالة ولا الحماس الموجود فيها والتي ربما تبدو لك غير مترابطة، لكنها ستترك بوادر أفكار في ذهنك حتمًا.

ثالثًا: اقرأ المقالة مرة أخرى بعد مضي أسبوع من قراءتك الأولى، ففي القراءة الثانية ستبدو لك أكثر إقناعًا.

رابعًا: افتح الكتاب المقدس وقم بقراءة الإصحاح الأربعين من سفر (إشعياء) وهو الفصل الذي يبدأ كالتالي: «عزوا، عزوا، شعبي...» والذي ينتهي بـ «يركضون ولا يتعبون.. يمشون ولا يعيون»، ولا شك أن هذا الفصل سيكون أكثر ألفة بالنسبة لك ومهما كان تخصصك لن يخفق في التأثير فيك، وفي خلق أحاسيس من نوع

نبيل ونادر لا يمكنك سوى الاستمتاع بها، وربما ستوافق على أن النتيجة التي حصلت عليها عند قراءة هذا الفصل «حتى وإن كان تخصصك مخالفًا لحكمه» أفضل من نتيجة قراءة قصة قصيرة في مجلة ما أو حتى مقالة (تشارلز لام)، فالمشاعر الشجية التي تتركها قراءة الإصحاح الأربعين من سفر (إشعياء) هي من بين المشاعر التي عادةً ما تولد عند قراءة الشعر النخبوي فناظم هذا النوع من الشعر شاعر عظيم وما خطته يداه لا شك بأنه عظيم أيضًا.

خامسًا: بعد قراءتك له، عد إلى (هازلت) وحاول أن تجد في محاضرته ما يسلط الضوء على الطبيعة النفسية لمشاعرك عند قراءة سفر (إشعياء).

سادسًا: الخطوة التالية هي عبارة عن قراءة إحدى قصائد (ويليام ووردزوورث) القصصية القصيرة وهي بعنوان «الإخوة»، ثمة بعض الإصدارات لـ (ووردزوورث) قيمتها شلن واحد فقط، لكنني أنصح «بالخزانة الذهبية»، وقيمتها دولاران، وذلك لأنها تحتوي على المقالة الشهيرة لـ (ماثيو أرنولد) الذي جمع واختار محتوى الكتاب، أريدك أن تقرأ القصيدة بصوتٍ عالٍ، وربما عليك حينها أن تتوارى عن الأنظار في مكان ما للقيام بذلك لأنك بالطبع لا تريد أن يسمعك أحد وأنت تنشد الشعر، إن قصيدة «الإخوة» عظيمة لدرجة تنسيك بأنها شعر فهي عبارة عن قصة قصيرة ذات حبكة صريحة وواضحة، فلتقرأها على هذا النحو؛ من أجل القصة فقط، ففي هذه المرحلة الحرجة من الأفضل ألا تربك تفكيرك بالاستغراق في أشياء تتعلق بالصيغة التي اتبعها (ووردزوورث) في

سرد حكايته، فهدفه كان مجرد رواية القصة فقط، عندما تقرأ القصيدة بصوتٍ عالٍ، لا تعطِ أهمية للوزن الشعري أكثر من المستوى الطبيعي فبعد سطور قليلة ستقدم الأوزان نفسها إليك فلا داعٍ لمعرفتك لأي نوع من بحور الشعر تنتمي هذه القصيدة. بعد أن تنتهي من القراءة بتمعن، اختبر أحاسيسك، بعد قراءة هذه القصيدة، وربما قصيدة أخرى أو اثنتين لـ (ووردزورث) مثل قصيدة «مايكل»، ستكون مشاعرك مختلفة تمامًا عن تلك المشاعر التي تتولد لديك بعد قراءة قصة قصيرة عادية أو حتى مميزة مكتوبة بطريقة النثر. فأحاسيسك هذه ربما لن تكون قوية وحادة، لكنها ستكون أكثر تأثيرًا بغموضها وغرابتها. ولا أجزم بأن هذه المشاعر ستكون ممتعة ومريحة، ربما لأنني أخاطب شخصًا خياليًا حديث العهد بالشعر، لكنني سأصفها بـ (المربكة) حيث أن أسمى أهداف الفن تكمن في إرباك الروح الذي يعتبر من أكثر الأشياء متعة بالنسبة لأي شخص منظم، لكن حقيقة كهذه لا يمكن تعلمها سوى بتكرار التجربة، عليّ أن أرشدك إلى (ووردزورث) ذاته لمساعدتك على شرح أفضل لمشاعرك عند قراءتك لقصائده من أجل أن تفهم التأثير الذي يود الشاعر أن يحيطك به والوسائل التي اتبعها في ذلك. فبالإضافة إلى كونه شاعرًا مميزًا، كان (ووردزوورث) ناقدًا شعريًا لا مثيل له، فما فعله (هازلت) للشعر من بث للحماس تمكن (ووردزوورث) من فعله في التأويل الفلسفي فتأويلاته للجانب النظري والعملي للشعر كتبت للقارئ البسيط، فهي تحترم استيعاب الناس كافة، فهي مقنعة ببساطتها المتواضعة والهادئة. إن مقالات (ووردزوورث)

الأساسية التي تسلط الضوء عليه هي بمثابة «إعلان» و«مقدمة» و«ملحق» للشعر الغنائي القصصي. كـ «رسائل إلى آنسة بومنت» و«الأصدقاء» و«مقدمة» للقصائد التي تعود لعام ١٨١٥. فكل هذه الأشياء ذات القيمة التعليمية الهائلة تقدم متعة كبيرة لقارئها أيضًا.

ولا عجب في ذلك، لأن (ووردزوورث) هو خبير من الدرجة الأولى بالشعر يتحدث بكل بساطة عن موضوع من اختصاصه.

إن المقالات التي تتعلق بالشعر الغنائي القصصي ستكون الأكثر نفعًا بالنسبة لك، إذ ستكتشف هذه الوثائق القيمة في مجلد بعنوان (النقد الأدبي لووردزوورث) «طبعة هنري فراود - تم إعداده من قبل نويل سي سميث»، ينبغي على طالب الشعر أن يمتلك هذا المجلد أو المادة التي تحتوي عليها، فهنالك مجلد نثري لـ (ووردزوورث) في مكتبة سكوت. بالنسبة لأولئك الذين لم يقرؤوا شعرًا لـ (ووردزوورث) لن تتكون لديهم فكرة عن ذلك السحر البسيط والتألق المفيد لشروحاته وأعتقد أنني لا أستطيع فرض النقد الأدبي لـ (ووردزوورث) على القارئ بالقوة، فما بين (هازلت) و(ووردزوورث) ستتعلم كل ما من شأنه أن يكشف لك طبيعة وأهداف ونتائج الشعر، ومن الأفضل أن أنجز هدفيّ بتحويلك إليهما حالًا. فثمة نقطة واحدة بين يدي لوضع تفاصيل نفسية، فأحد أبرز المعوقات أمام عملية تنمية وغرس الشعر لدى القارئ متوسط الثقافة هي الفكرة المبالغ بها حول عدم أهمية الشعر، وإذ يتبادر في ذهن ذلك الرجل فكرة أن الشعر أمر سخيف ومصطنع ومبالغ فيه، لكن هذه الاتهامات الموجهة للشعر يمكن الإجابة عنها بكل رضا.

وعلى أية حال، فتهمة عدم الأهمية أو السخافة لا يمكن دحضها بالجدل، فليس هنالك إجابة منطقية لسبب القهقهة المفاجئة مثلًا. فشعور السخافة هذا شعور صبياني سيء وشاذ يمكننا رؤيته في المسرح على وجه الخصوص، فلا يستطيع أي كاتب مسرحي عظيم ولا مؤلف بارز ولا ممثل ناجح أن يمنع الحضور من الضحك بصوتٍ عالٍ عند لحظة حزينة في المسرحية إذا ما مرت قطة من فوق خشبة المسرح صدفة، ولكن لمَ أفسدت تلك القهقهة المشهد كاملًا؟ ببساطة، لأن غالبية الحضور لديهم صبيانية ما بداخلهم، إن هذا الشعور بالسخافة لا يمكن التخلص منه إلا بممارسة السلطة الأخلاقية، فإذا كنت تميل للضحك عندما يعبر الشاعر عن نفسه بشكل أكثر قوة من تعبيرك عن نفسك، أو عندما يتحدث الشاعر عن مشاعر لا يرد ذكرها عادة في الصحف اليومية، أو حين يستخدم مفردات وصور تتجاوز حدود ألفاظك، أو مستوى تفكيرك، فمن الأفضل لك عندها أن تتعهد بإصلاح نفسك، ثم عليك أن تقرر فيما إذا كنت ستكون في صف الملائكة أم المغفلين، فليس هنالك من دلالة واضحة على عدم النضج أكثر من الاندفاع في القهقهة عند حدوث شيء غير اعتيادي أو ساذج أو مبالغ فيه، وإذا اخترت القيام بذلك فإنك ستلاحظ دخول القطة إلى المسرح، لكن النفوس السامية ستحزن عليك كثيرًا حينها.

إن دراسة النقد الأدبي لـ (ووردزوورث) تشكل الخطوة السابعة في خطة العلاج التي اقترحتها سابقًا، بينما ستكون العودة إلى قصائده التي كنت قد قرأتها سابقًا، لتعيد قراءتها مرة أخرى

على ضوء دفاع وتفسيرات الكاتب هي الخطوة الثامنة. اقرأ لـ (ووردزوورث) بالكم الذي تستطيع استيعابه، ولكن تجنب قصائده الطويلة، ثم يأتي بعد ذلك دور اختيار القصيدة الطويلة فقد بدأت باقتراح القصائد القصصية لكل شخص جديد العهد في قراءة الشعر ولازلت مصرًا على نصيحتي هذه، وأقصد هنا الشعر القصصي بالمعنى المقيد للكلمة، فالملحمة على سبيل المثال تعتبر شعرًا قصصيًا. و«الفردوس المفقود» و«المقدمة» كذلك، ولا أحبذ البدء بأي من هذه الأعمال العظيمة فقد وقع اختياري على «أورورا لي» للكاتبة (إليزابيث براونينغ) التي إذا ما انشغلت بها يومًا وقمت بتسلية نفسك بأحداث قصتها «كما هو الحال بالنسبة لووردزوورث» دون أن تسمح لنفسك بالتفكير في إن ما تقوم بقراءته هو نوع من الشعر، حينها لن تقوم بتركها قبل أن تنهيها. وقبل أن تصل إلى النهاية ستكون قد صادفت في طريقك كل أنواع الأمزجة الشعرية تقريبًا، من التراجيدي إلى الفكاهي والساخر إلى الرثاء والشعر الغنائي وغير ذلك الكثير، وبذلك ستكوّن رؤية شاملة لأفكار الشاعرة، وأجزم لك بأنك ستنجو إن عاملت القصيدة معاملة الرواية، لأنها تعتبر بالأصل رواية ذات طابع شعري لا تقل أهمية عن روايات (تشارلوت برونتي) و(جورج إليوت) ومن الأفضل عند قراءتها أن تقوم بتحديد أو تدوين المقاطع التي كانت أكثر إمتاعًا بالنسبة إليك، ومن ثم مقارنتها بتلك المقاطع المختارة التي يثني فيها بعض النقاد المختصين على العمل.

ويمكن إيجاد (أورورا لي) في سلسلة الكلاسيكيات القديمة

أو في سلسلة شعراء كانتربيري، أما بالنسبة إلى المعلومات القيمة التي تتعلق بسيرة الكاتبة إليزابيث براوننغ فيمكن الحصول عليها في كتاب «حياتها القصيرة» من سلسلة «نساء بارزات» للكاتب (جون هنري انغرام) أو في كتاب «روبرت براوننغ» للكاتب (ويليام شارب) من سلسلة «كتّاب عظماء». أما الآن وبعد كل هذا، تستطيع البدء باختيار شعرائك بنفسك، وبالعودة إلى (هازلت) سترى بأنه يتعامل مع شعراء عدة من بينهم: (جيفري تشوسر، ادموند سبنسر، ويليام شكسبير، جون ميلتون، جون درايدن، إلكسندر بوب، توماس شاترتون، روبرت برنز) وشعراء البحيرة، فربما ستختار أحدهم وستقرأ له بناءً على توجيهات (هازلت).

يقول (ووردزوورث): لقد أعجبتني فكرة أن هنالك أربعة شعراء في اللغة الإنجليزية ممن عليّ أن أضعهم أمامي كأمثلة باستمرار هم: (تشاوسر، شكسبير، سبنسر وميلتون)، وللعلم فإن (ووردزوورث) يشكل خمس هؤلاء الأربعة.

فالشعر المعاصر يجب أن يُقرأ تزامنًا مع دراسة دقيقة مليئة بالحماس لأحد الأعمال الكلاسيكية البارزة. أرجو أن تتقبل مني العبارة التالية: «إذا كانت دراسة الشعر الكلاسيكي قد خلقت في نفسك نفورًا تجاه الشعر الحديث، فهذا يعني أن شيئًا خاطئًا قد حدث في طريقة تطور ذوقك الأدبي»، وربما بإمكانك أن تبدأ في هذه المرحلة، وليس قبلها بالاستفسار حول مسائل الوزن والبناء الشعري والقافية، وأعتقد بأنه لا يوجد كتيب جيد ودقيق ومعقول الثمن لعلم العروض والنظم الشعري في اللغة الإنجليزية إذ لاتزال

هنالك حاجة ملحة لكتيب كهذا، فالكتيب الوحيد الذي تمكنت من الحصول عليه هو كتاب «قواعد القافية، دليل في نظم الشعر في اللغة الإنجليزية» للكاتب (توم هود)، بالإضافة إلى مقدمة جون ووكر في «القاموس الناظم» التي يقدم من خلالها تفسيرًا أوليًا لهذا الموضوع، أما (جون رسكن) فقد كتب أيضًا مقالة ممتازة في الأوزان الشعرية، فمن خلال كتيب صغير أمامك في بضع ساعات من الزمن يمكنك الاطلاع على المبادئ الأساسية التي تأصلت منها موسيقى الشعر في اللغة الإنجليزية. إن مهمة كهذه ليست بتلك الأهمية، لكن مسألة تقدير الروح العميقة لأعظم النتاج الشعري رائعة وأبدية لا يمكن أن تنتهي أبدًا.

الفصل العاشر
نصائح متنوعة

لقد انتهيت الآن من تحديد كل ما يبدو لي ضروريًا من اعتبارات ونصائح وتوصيات من شأنها أن تساعد في مشروع تكوين الذوق الأدبي الدقيق والشاق. لقد تعاملت مع نظرية الأدب وسيكولوجية المؤلف، وبالقدر ذاته من الأهمية مع سيكولوجية القارئ أيضًا، وحاولت أن أفسر المؤلف للقارئ، بل وحتى القارئ لنفسه أيضًا، فالغوص في التفاصيل بشكل أكبر يعني أنني سأتجاوز هدفي الأساسي دون أمل في الوصول إلى استنتاج منطقي لتلك الخطة التي تتسع باستمرار، فليس الهدف هنا تزويد القارئ بخارطة تدله إلى الطريق، بل ببوصلة ذات اتجاهين مختلفين تمامًا ليختار ما يناسبه، وتبقى النصيحة العامة التي أقدمها للقراء، هي أن أضع أمامهم ثلاث خطط يمكن تطبيقها بشكل أشمل من أي خطط أخرى كنت قد قدمتها بشأن مسألة القراءة.

والآن أصبح لديك معيار داخلي يمكنك من خلاله التدقيق في أي كتاب تعتقد بأنك ستتمكن من استيعابه، هل بدا لك الكتاب

صادقًا وموثوقًا؟ إذا كان كذلك فلا حاجة للقلق بشأن مشاعرك الراهنة أو النتائج المستقبلية لقراءتك لذلك الكتاب، فسوف تحب الكتاب بشكل كبير ولا عجب في ذلك، ففي الأدب كما في الحياة، ما يهمنا هي الجودة أولًا وأخيرًا. ولكن يجب أن تحذر من مشاعرك المباشرة فالحقيقة لا تعجبنا دائمًا وبوادرها الأولى غالبًا ما تكون مثيرة للقلق بالإضافة إلى كونها غير محببة ومن الطبيعي أن نفضل إبعادها لأننا لا نمتلك أية اهتمامات مشتركة معها (لا ناقة لنا بها ولا جمل).

وربما ستقوم بتجاهل كتاب ما إذا ما أثار فيك ازدراءً حقيقيًا. وعليك عندها ألا تخلط بين الازدراء والغضب، فإذا أغضبك كتاب ما فثمة فرصة كبيرة بأن يكون كتابًا جيدًا فأغلب الكتب الجيدة تبدأ بخلق نوع من الغضب الذي يختبئ تحت عباءة الازدراء. عندما تطلب الصدق والأمانة من المؤلفين يجب أن تعرف أنك يجب أن تقدم الشيء ذاته كقارئ، فأن تكون صادقًا مع نفسك ليس بالأمر السهل كما يبدو لك، فأحاسيس الإنسان ومشاعره يجب أن تتم دراستها بتجرد وموضوعية، عندما تهم لرمي كتابٍ ما أرضًا أنصت فيما إذا كنت تستطيع سماع صوت يهمس بداخلك قائلا: «إنه حقًا كذلك» فإن استطعت أن تعي تلك الهمسة فمن الأفضل أن تستجيب لها بأسرع ما يمكن لأن ذلك الصوت الداخلي سيفوز عاجلًا أم آجلًا.

وكذلك الحال عندما تحتضن كتابًا آخر أبقِ آذانك صاغية لأي تحذير خفي يقول لك: «نعم، هذا غير صحيح» وذلك لأن الكتب

السيئة ستقنعك بأنها كتب رائعة ومترفة عن طريق الإطراء والملاطفة وجذب نقاط ضعفك، وقد استخدمت كلمة صحيح بدلالة أساسية وواسعة وليس بالضرورة أن أعني بذلك كلمة صحيح بمعناها الحرفي، ولكنني أعني أنه صحيح على مستوى التجربة التي ينتقل فيها الكتاب فالمصداقية الخاصة برواية «ايفانهو أو الفارس الأسود» للكاتب (والتر سكوت) لا يمكن تقديرها أو تخمينها بناء على ذات المقاييس التي يتم التنبؤ بها حول مصداقية «التاريخ الدستوري» لويليام ستوبس مثلًا.

إن سؤالًا صادقًا للنفس كالتالي: «هل هذا حقيقي؟»، بالإضافة إلى الالتزام بالإجابة سيساعد أكثر بكثير من أية عملية استنتاجية أخرى في تشكيل الذوق الأدبي. ولا أجزم بأن كلًا من هذا السؤال وهذه الإجابة كافيان لأن الكتاب الحقيقي ليس بالضرورة أن يكون كتابًا عظيمًا دائمًا، ولكن بالمقابل فالكتاب العظيم حتمًا سيكون حقيقيًا. أما نصيحتي الثانية فهي كالتالي: «يجب أن تضع نصب عينيك أهدافًا محددة، عند القراءة، تتجاوز مجرد الاستمتاع بها، مع أنني على قناعة تامة بأن المتعة هي الهدف الأسمى لأي عمل فني وذلك لأن المتعة التي يتركها أي نوع من الفن فينا هي متعة منشطة تبث الحياة في أي شيء تدخل إليه».

ولا يمكن الحصول على القدر الأكبر من تلك المتعة إلا بالجهد المنتظم الذي يعني أيضًا تنظيم ذلك الجهد، إن رياضة المشي في الهواء الطلق رياضة رائعة، فالمشي بحد ذاته تمرين رائع، لكن الشخص

العاقل عندما يخطط لتمرين المشي فإن لديه هدف إضافي، فهو يقول لنفسه بأنه سيصل إلى نقطة محددة أو أنه سيعمل على تطوير مستوى السرعة لديه لمسافة محددة، أو أنه سيحدد فترة زمنية لتمرينه هذا، فهو بذلك يرتب جهوده من أجل الحصول على فائدة أخرى بالإضافة إلى فوائد المشي من جهة، وما يهمه على وجه الخصوص هو أن يصبح واثقًا أن جهوده كانت كافية، فالأمر ذاته ينطبق على القراءة فالهدف الأسمى من الاستغراق في دراسة الأدب هو الاستمتاع، لكنك لن تنجز هذا الهدف بكمال دون أن تمتلك هدفًا إضافيًا يستدعي قياس مستوى طاقتك، يمكن أن يكون هدفك الإضافي جماليًا، أخلاقيًا، سياسيًا، دينيًا، علميًا أو حتى معرفيًا، ويمكنك أن تكرس نفسك لكاتب ما أو موضوع معين أو فترة زمنية محددة أو بلد معين أو فرع من فروع الأدب أو حتى فكرة، فلديك أوسع قدر من الخيارات وليس عليك سوى أن تمتلك هدفًا محددًا.

في ملاحظاتي السابقة حول وسيلة القراءة كنت قد أيدت، دون تشديد، فكرة الساعات المنتظمة للدراسة، لكنني أؤيد بشدة مسألة تحديد موعد نهائي لإنجاز مهمة محددة فعلى سبيل المثال، ليس كافيًا أن تقول: «سأطلع بشكل كامل على شعراء البحيرة»، بل يجب أن تقول: «سأطلع بشكل كامل على شعراء البحيرة قبل مضي عام آخر من عمري» فبدون هذه التعزيزات الوقائية لقرار القراءة سيزداد خطر تذليل (تحويل) الإخفاق إلى فشل بشكل كبير.

أما نصيحتي الثالثة فهي شراء مكتبة، فمن الواضح أنه لا يمكنك القراءة دون أن تمتلك كتبًا، فأنا أنصحك بالشراء المستمر

للكتب المصرح بها والقابلة للنشر دون الإشارة إلى ما ستجنيه من تأثيرها المباشر على حالتك الخاصة، وقد حان الوقت الآن لإخبارك بأن «القارئ» هو رجل يمتلك العديد من الكتب من بين أشياء أخرى، فمن لا يمتلك كتبًا لا يمكن تسميته بذلك الاسم.

لسنين عدة، قامت السلطات الأدبية بتقديم قوائم مختارة لجمهورها الأدبي، لأفضل الكتب تتضمن أفضل الروايات والكتب التاريخية وأفضل القصائد والأعمال الفلسفية بالإضافة إلى قوائم بأفضل مئة عمل أو أفضل خمسين عملًا من كل تلك الأنواع.

إن إحدى أكبر المساوئ لقوائم كهذه هي أنها تهمل أعدادًا كبيرة من الأعمال الأدبية التي تعتبر أعمالًا نخبوية، لذلك فإن القارئ لا يمكن أن يرضى بمكتبة مختارة، فهو يريد مكتبة متكاملة بكل أقسامها كحد أدنى، وعندما يتحقق هذا العنصر الأساسي، يمكنه بعد ذلك أن يتحول إلى شراء الكتب التي تتناسب مع ميوله الخاصة. إن أي رجل إنجليزي مهتم بأي فرع من فروع أدب لغته الأم ولديه احترام لنفسه، عليه أن يقتني مكتبة شاملة متكاملة للأدب الإنجليزي بطبعات جميلة ومناسبة، ربما ستقول إن هذه نصيحة كمالية، ولكنها ليست كذلك. لقد وضع (مارك باتيسون) قاعدة تنصّ على أن من يرغب بأن يسمى عاشقًا للأدب فعليه أن ينفق خمسة بالمئة من دخله على شراء الكتب. إن اقتراحًا كهذا لا يبدو متهورًا أو مبالغًا فيه، فحتى وإن كانت النسبة أقل من خمسة بالمئة فإن صاحب هذه الكتب سيصبح خلال مدة زمنية وجيزة صاحب مكتبة شاملة تحتوي على الأعمال الكاملة لأعظم مبدعي الأدب ونماذج لأهم أعمال كتّاب

النخبة في كافة المجالات، بالإضافة إلى نماذج لأعمال كافة كتّاب الدرجة الثانية ممن كان صيتهم حيًا حتى الآن، فمخطط هذه المكتبة الذي أقدمه الآن يبدأ قبل عهد (جيفري تشوسر) وينتهي عند (جورج جيسنغ)، وأنا على يقين بأن الغالبية العظمى من القراء سيندهشون من سعر هذا المخطط الزهيد الذي لم تتم طباعة مخطط مشابه له من قبل على حد علمي.

الفصل الحادي عشر
مكتبة للغة الإنجليزية - المرحلة الأولى

أولًا: إنني مدين بالشكر الجزيل لصديقي القديم والقدير (تشارلز يانغ) رئيس شركة (لاملي وشركاه) لبيع الكتب، على النصائح والتعديلات التي قدمها لي فيما يتعلق بالطبعات والأسعار.

بداية سوف أقسم الأدب الإنجليزي، ليس إلى فترات تاريخية، بل إلى ثلاث مراحل يمكن أن تكون عشوائية من وجهة النظر التاريخية، لكنها بالرغم من ذلك جمعت وفقًا للمكان الذي ستحتله في رفوف المكتبة، بالإضافة إلى المتطلبات التي تفرضها على محفظة القارئ.

١ - المرحلة الأولى: من البداية حتى (جون درايدن) أي إلى نهاية القرن السابع عشر تقريبًا.

٢ - المرحلة الثانية: من (ويليام كونغريف) إلى (جين أوستن): القرن الثامن عشر.

٣ - المرحلة الثالثة: من (والتر سكوت) حتى آخر كاتب كلاسيكي، أي القرن التاسع عشر تقريبًا.

ستكون المرحلة الثالثة هي الأكبر حجمًا والأكثر تكلفة، ليس بالضرورة لأنها تحتوي على كتب عظيمة بشكل أكبر من المراحل الأخرى (بالرغم من أنها كذلك برأيي) ولكن لأنها الأقرب بالنسبة لنا، لذا فهي الأكثر إقناعًا.

لم أقيد خياراتي بالكتب ذات الاهتمامات الأدبية البحتة، وأعني بذلك تلك الأعمال التي هي أساسًا أعمال فن أدبي، لأن الأدب هو أداة للفلسفة والعلم والأخلاق والدين والتاريخ، لذا فالمكتبة لا تكون مكتبة شاملة، إلا إذا ضمت، إلى جانب الأعمال الخيالية، كل فروع النشاط الفكري هذه، فعند اشتمالها على كل هذه الفروع لا يمكنها تجنب ضم أعمال ينعدم فيها الاهتمام الأدبي الخالص.

من ناحية أخرى، فقد استبعدت ما يلي:

أولًا: أعمال تكمن قيمتها الفردية في كونها تشكل رابطًا في سلسلة التطور. وتشكل كافة الأعمال الأدبية لكتاب فترة ما بين عهد (تشوسر) وبداية عهد الملكة إليزابيث أمثال: (جون فاور، توماس هوكليف، سكلتون) الذين تقرأ أعمالهم فقط من قبل الأساتذة الجامعيين والطلاب الذين يودون بأن يصبحوا أساتذة جامعيين أيضًا.

ثانيًا: الأعمال التي لم تكتب بالأساس باللغة الإنجليزية كأعمال الفيلسوف العظيم (روجر بيكون) الذي يجب أن يفخر به الجميع، وعلى أية حال، فقد وجدت نفسي مجبرًا على وضع استثناءات بسيطة لهذه القاعدة، فملحمة «الطوباوية» لتوماس مور كانت

قد كتبت باللاتينية، لكن لا يمكن لأي أحد أن يقتنع بتكامل أي مكتبة دون وجود هذا العمل، وهل يمكن كذلك استثناء كتاب «المبادئ» لإسحاق نيوتن، ذلك العمل الخالد لأعظم عالم فيزياء في العالم؟! فلابد لقانون الجاذبية أن يقدم لنا نوعًا من الفوائد الوجدانية.

ثالثًا: ترجمات من آداب أجنبية إلى اللغة الإنجليزية.

والآن، ها هي قوائم المرحلة الأولى:

كتّاب النثر:

- القديس بيدا «التاريخ الكنسي للأمة الإنجليزية» كلاسيكيات المعبد.
- توماس مالوري «الملك آرثر» مكتبة إيفريمان، ٤ مجلدات.
- توماس مور «الطوباوية» مكتبة سكوت.
- جورج كافنديش «حياة الكاردينال وولسي» المكتبة العالمية الحديثة.
- ريتشارد هاكلوت «رحلات» مكتبة إيفريمان، ٨ مجلدات.
- ريتشارد هوكر «النظام الكنسي» مكتبة إيفريمان، مجلدين.
- فرانسيس باكون «أعمال» كلاسيكيات نيونس ثن بيبر.
- توماس ديكر «دليل الحمقى» كلاسيكيات الملك.
- ادوارد هربرت «سيرة حياة تشير بيري» مكتبة سكوت.
- جون سيلدن «طاولة نقاش» المكتبة العالمية الحديثة.

- توماس هوبز «لوياثان (وحش بحري هائل)» المكتبة العالمية الحديثة.
- جيمس هويل «رسائل مألوفة» كلاسيكيات المعبد، ٣ مجلدات.
- توماس براون «عقيدة طبيب» مكتبة إيفريمان.
- جيرمي تايلور «عيش مقدس وموت مقدس» كلاسيكيات المعبد، ٣ مجلدات.
- إيزاك والتن «الصياد الشامل» مكتبة إيفريمان.
- جون بنيان «رحلة الحاج» كلاسيكيات عالمية.
- ويليام تمبل «مقال في حدائق أبيقور» كلاسيكيات الملك.
- جون أيفلين «اليوميات» مكتبة إيفريمان، مجلدين.
- صاموئيل بيبس «يوميات» مكتبة إيفريمان، مجلدين.

إن حالة الحذف الرئيسية من القائمة في الأعلى كانت من نصيب «رسائل باستون» الذي كنت سأضمه إلى القائمة السابقة لو أن ناشريه غامروا بطرح نسخة في السوق بسعر زهيد، أما حالات الحذف الأخرى فتتضمن أعمال (وليم كاكستون) و(جون ويكليف) وكتب مثل «بريطانيا» لـ (ويليام كامدن) وكتاب «المعلم» للكاتب (روجر آشام)، وكتاب «مستحقات إنكلترا» للكاتب (توماس فولر)، وذلك لأن افتقارها للقيمة الأولى كأدب لم يعوّض بشكل كافٍ عن طريق فائدتها التاريخية، أما بالنسبة للكتاب المقدس فهو مترجم أولًا، وأعتقد أن الجميع يمتلك منه نسخة ثانيًا.

الشعراء:

- «ملحمة بيوولف» مكتبة روترليدج لندن.
- جيفري تشوسر «أعمال» نسخة عالمية، إصدار عالمي.
- نيكولاس أودال «رالف رويستر دويستر» مسرحيي المعبد.
- ادموند سبنسر «أعمال» نسخة عالمية.
- توماس لودج «روزاليندا» سلسلة كاكستون.
- روبرت غرين «حكم السلطان سليم المأساوي» مسرحيي المعبد.
- مايكل درايتون «قصائد» كلاسيكيات نيونس بوكيت.
- كريستوفر مارلو «أعمال» المكتبة العالمية الحديثة.
- ويليام شكسبير «أعمال»، إصدار عالمي.
- توماس كامبيون «قصائد» مكتبة ميوز.
- بن جونسون «مسرحيات» شعراء كانتيربيري.
- جون دون «قصائد» مكتبة ميوز، مجلدين.
- جون وبستر وسيريل تورنو «مسرحيات» سلسلة حورية البحر.
- فيليب ماسنجر «مسرحيات» إصدار كانينغهام.
- فرانسيس بيمونت وجون فلتشر «مجموعة مختارة من المسرحيات» شعراء كانتيربيري.
- جورج هربرت «المعبد» مكتبة إيفريمان.

- روبرت هيريك «قصائد» مكتبة ميوز - مجلدين.
- السير جون سكلنغ «قصائد» مكتبة ميوز.
- إبراهام كولي «قصائد إنجليزية» مطابع جامعة كامبريدج.
- ريتشارد كراشو «قصائد» مكتبة ميوز.
- هنري فوغان «قصائد» مكتبة ميثوين الصغيرة.
- سموئيل تبلر «هودبراس» مطابع جامعة كامبريدج.
- جون ملتون «أعمال شعرية» طبعة أكسفورد الرخيصة الثمن.
- جون ملتون «أعمال نثرية مختارة» مكتبة سكوت.
- أندرو مارفل «قصائد» مكتبة ميثوين الصغيرة.
- جون درايدن «أعمال شعرية» إصدار عالمي.
- توماس بيرسي «بقايا الشعر الإنجليزي القديم» مكتبة إيفريمان، مجلدين.
- إدوارد أربر «مختارات أدبية لإدموند سبنسر» مطابع جامعة أكسفورد.
- إدوارد أربر «مختارات أدبية لجونسون» مطابع جامعة أكسفورد.
- إدوارد أربر «مختارات أدبية لشكسبير» مطابع جامعة أكسفورد.

ثمة العديد من صغار الكتّاب البارعين في القرن السابع عشر ممن كانت أفضل أعمالهم تباع بالجملة، لكنها لا تستحق الاستحواذ على مجلد منفصل لكل مؤلف أو يصعب اقتناء طبعة حديثة منها على الإطلاق.

فهؤلاء المؤلفين لا يمكن تجاهلهم تمامًا عند تكوين مكتبة، وللتغلب على هذا العائق فقد أدرجت المجلدات الثلاثة الأخيرة في القائمة السابقة، فمختارات إدوارد أربر تزخر بالأعمال النادرة وتضم بين طياتها نماذج رائعة لأشعار صاموئيل دانييل وجايلز فليتشر وكونتيسة بيمبروك (ماري سيدني) وجيمي الأول وجورج بيل ووالتر رالي وتوماس سكوفيل والسير فيليب سيدني وويليام دروموند وتوماس هيوود وجورج ويذر والسير هنردي ووتن والسير ويليام دافينانت وتوماس راندولف وفرانسيس كوارلز وجيمس شيرلي، وغير ذلك من الشعراء الأقل منهم مرتبة والأعظم أيضًا.

وقد أدرجت أيضًا أهم كتّاب المسرح في عهد الملكة إليزابيث عدا جون مارستون لأن كل الإصدارات الخاصة بأعماله قد نفدت -وفقًا لبحوثي- ففي عهد الملكة إليزابيث والعهد الذي تلاه «العهد اليعقوبي» كانت المواهب الاستثنائية وافرة بشكل كبير وذلك بسبب ارتفاع معيار التميز آنذاك، لذلك تدنى تقسيم بعض الكتاب إلى الدرجة الثالثة والتي كانت ستعتبر درجة ثانية لو أنها كانت في فترة أقل تألقًا في الإنتاج الأدبي.

ملخص المرحلة الأولى:

١٩ كاتبًا للنثر في ٣٦ مجلدًا، و٢١٦٢٩ شاعرًا بالإضافة إلى عشرات المؤلفين المبدعين ممن تم الحديث عنهم في تلك المختارات الأدبية. ويمكن شراء كافة تلك المجلدات من أية مكتبة على الفور.

الفصل الثاني عشر
مكتبة للغة الإنجليزية - المرحلة الثانية

بعد الانتهاء من فكرة تشكيل مكتبة تضم أعمالًا لعدد من المؤلفين وصولًا إلى الكاتب جون درايدن، عليّ أن أرتب بشكل منطقي خطة للفترة الممتدة في القرن الثامن عشر تقريبًا، وليس هنالك أي سبب لاتّباع القارئ لأي ترتيب زمني عند بحثه عن الكتب، فإنني أنصحه، في الواقع، بالهجوم على أعمال القرن التاسع عشر قبل الثامن عشر.

وذلك لسبب واحد، وهو أنه سوف يكتسب رضًا ونفعًا أكبر مما يكتسبه من قراءته لأدب القرن الثامن عشر. فنتاج الأدب في القرن الثامن عشر يحتوي على نسبة معتبرة مما يمكن تسميته بـ «التميز غير الجذاب» والذي يقصد به تلك الأعمال التي يجب على القارئ اقتناؤها بغرض الكمال، لكنها ستنتظر كثيرًا ليتم قراءتها بعد قراءة أعمال أخرى أكثر إنسانية وتأثيرًا.

وقد أعطيت اهتمامًا خاصًا لكتّاب الفلسفة في ذلك العصر.

كتّاب النثر:

- جون لوك «أعمال فلسفية» إصدار مطبعة بون، مجلدين.
- إسحاق نيوتن «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» ثلاثة أقسام ماكميلان.
- جيلبريت بورنيت «تاريخ عصره» مكتبة إيفريمان.
- ويليام ويتشرلي «أفضل المسرحيات» سلسلة عروس البحر.
ويليام كونغريف «أفضل المسرحيات» سلسلة عروس البحر.
- جوناثان سويفت «قصة منبر الوعظ» مكتبة سكوت.
- جوناثان سويفت «رحلات جوليفر» كلاسيكيات المعبد، قديمة.
- دانييل ديفو «روبنسون كروزو» كلاسيكيات عالمية.
- دانييل ديفو «يوميات عام الطاعون» مكتبة إيفريمان.
- جوزيف أديسون وريتشارد ستيل «مقالات» مكتبة سكوت.
- ويليام لو «نداء حقيقي من أجل حياة تقية ومقدسة» مكتبة إيفريمان.
- ماري وورتليمونتاغيو «رساذل» مكتبة إيفريمان. رسائل؟
- جورج بيكرلي «مبادئ المعرفة الإنسانية» المكتبة العالمية الحديثة.
- صموئيل ريتشاردسون «كلاريسا» ملخص، إصدار روترليدج.
- جون ويسلي «يوميات» مكتبة إيفريمان، ٤ مجلدات.
- هنري فلدنغ «توم جونز» إصدار روترليدج.

- هنري فلدنغ «ايميليا» إصدار روترليدج.
- هنري فلدنغ «جوزيف اندروز» إصدار روترليدج.
- ديفيد هيوم «مقالات» كلاسيكيات عالمية.
- لورنس ستيرن «تريسترام شاندي» كلاسيكيات عالمية.
- لورنس ستيرن «رحلة وجدانية» المكتبة العالمية الحديثة.
- هوراس والبول «قلعة اوترانتو» كلاسيكيات الملك.
- توبياس سموليت «همفري كلينكر» إصدار روترليدج.
- توبياس سموليت «رحلات عبر فرنسا وإيطاليا» كلاسيكيات عالمية.
- آدم سميث «ثروة الأمم» كلاسيكيات عالمية، مجلدين.
- صموئيل جونسون «حياة الشعراء» كلاسيكيات عالمية، مجلدين.
- صموئيل جونسون «راسيلاس - أمير الحبشة» المكتبة العالمية الحديثة.
- جيمي بوزويل «سيرة حياة صموئيل جونسون» مكتبة إيفريمان، مجلدين.
- أوليفر غولد سميث «أعمال» إصدار عالمي.
- هنري ماكنزي «الرجل ذو المشاعر» مكتبة كاسيلا الوطنية.
- جوشوا رانيولدسي «أحاديث حول الفن» مكتبة سكوت.
- إدموند بيرك «إضاءات على الثورة الفرنسية» مكتبة سكوت.

- إدموند بيرك «أفكار حول الاستياء الحالي» المكتبة العالمية الحديثة.
- إدوارد جيبون «ضعف الامبراطورية الرومانية وسقوطها» كلاسيكيات عالمية، ٧ مجلدات.
- توماس بين «حقوق الإنسان» إصدار واتز وشركاه.
- ريتشارد برنسلي شريدان «مسرحيات» كلاسيكيات عالمية.
- فاني بيرني «ايفلينا» مكتبة إيفريمان.
- جيلبرت وايت «التاريخ الطبيعي اسلبورن» مكتبة إيفريمان.
- ارثر يانغ «رحلات في فرنسا» مكتبة يورك.
- مونغو بارك «رحلات» مكتبة إيفريمان.
- جيرمي بنثام «مقدمة إلى مبادئ الأخلاق والتشريع» مطابع كلاريندون.
- توماس روبرت مالتوس «بحث في مبدأ السكان» إصدار وارد لوك.
- ويليام غودوين «مغامرات كالب ويليامز» إصدار نيونس.
- ماريا – ادجورث «هيلين» إصدار ماكميلان المفصل.
- جين أوستن «روايات» مكتبة القرن الجديد لنيلسون، ٤ مجلدات.
- جيمس موريير «مغامرات حاجي بابا» روايات ماكميلان المفصلة.

أما حالات الحذف الرئيسية فقد كانت من نصيب (جيرمي كولير) الذي اشتهر بمعارضته لبقاء المسرح في كتابه الذي لا أتذكر عنوانه، بالإضافة إلى (ريتشارد بنتلي) الذي اندثر صيته بوفاته، فلم يعد لأعماله وجود حاليًا و(جونيوس) الذي لم يكن لينسى تمامًا لو أن هناك محققًا بارعًا كشارلوك هولمز ليتحرى عن وجوده.

الشعراء:

- توماس أوتواي «مدينة البندقية المصونة» مسرحيو المعبد.
- ماتيو برايور «قصائد في مناسبات عدة» كلاسيكيات كامبريدج للغة الإنجليزية.
- جون كاي «قصائد» مكتبة ميوزيز، مجلدين.
- الكساندر بوب «أعمال» نسخة عالمية، إصدار عالمي.
- إسحاق واتس «ترانيم» كتب التراتيل.
- جيمس تومسون «الفصول الأربعة» مكتبة ميوز.
- تشارلز ويزلي «ترانيم» كتب التراتيل.
- توماس غراي وصموئيل جونسون وويليام كولينز «قصائد» مكتبة ميوز.
- جيمس ماكفيرسن «أوسيان» قصائد، شعراء كانتيربيري.
- توماس شاترتون «قصائد» مكتبة ميوز، مجلدين.
- ويليام كوبر «قصائد» شعراء كانتيربيري.
- ويليام كوبر «رسائل» كلاسيكيات عالمية.

- جورج كريب «قصائد» مكتبة ماثيونز الصغيرة.
- ويليام بليك «قصائد» مكتبة ميوز.
- ويليام ليسلي بولز وهارتلي كولريدج «قصائد» شعراء كانتيربيري.
- روبرت برنز «أعمال» إصدار عالمي.

ملخص المرحلة الثانية:

٣٩ كاتبًا للنثر و٦٠ مجلدًا و٥١٠١٨ شاعرًا.

الفصل الثالث عشر
مكتبة للغة الإنجليزية - المرحلة الثالثة

إن القائمة بأهم مؤلفي هذه الفترة الثالثة والأخيرة ربما ستكون طويلة جدًا، لذا فقد وجب تقسيم كتّاب النثر إلى قسمين: خيالي وواقعي. وربما ستؤثر مسألة حقوق النشر في النصف الأخير من هذه الفترة بشكل كبير في الخطة التي رسمناها إلى حد ما بسبب تأثيرها على أسعار الكتب. ولحسن الحظ فإن الكتب التي تصنف في الدرجة الأولى من حيث أهميتها العامة أسعارها غير مبالغ بها بشكل واضح، إلا أنني واجهت صعوبات تتعلق بكتب الدرجة الثانية إذ تعاملت مع هذا النوع بروح مرنة.

وربما ينبغي عليّ القول أنه بالرغم من وجوب تضمين عدد أكبر من الكتّاب الذين تعتبر أعمالهم سهلة الاقتناء نظرًا لأسعارها المعقولة، إلا أنني عمدت إلى عدم حذف أي عمل أراه ضروريًا لمجموعة الكتب النموذجية التي أرشدت قرائي باقتنائها فلم استثنِ أي كاتب حي الصيت منها، وعندما لا أحدد طبعة الكتاب فإنني أعني بذلك الإصدار الرئيسي له.

كتّاب النثر:

خيالي:

- والتر سكوت «ويفرلي» و«قلب ميدلوثيان» و«كونيتن دوروارد» و«ريد غونتليت» و«إيفانهو أو الفارس الأسود» مكتبة إيفريمان، ٥ مجلدات.
- والتر سكوت «مارميون» شعراء كانتيربيري.
- تشارلز لام «أعمال في الشعر والنثر» مطابع كلاريندون، مجلدين.
- تشارلز لام «رسائل» كلاسيكيات نيونس ثن بيبر.
- والتر سافاج لاندرو «حوارات خيالية» مكتبة سكوت.
- والتر سافاج لاندرو «قصائد» شعراء كانتيربيري.
- ليه هنن «مقالات وصور» كلاسيكيات عالمية.
- توماس لف بيكوك «روايات أساسية» المكتبة العالمية الحديثة.
- ماري راسل ميتفورد «قريتنا» مكتبة سكوت.
- مايكل سكوت «سجل توم كرينغل» روايات ماكميلان المفصلة.
- فريدريك ماريات «السيد ايزي ضابط البحرية» مكتبة إيفريمان.
- جون غلزورثي «حوليات الأبرشية» مكتبة إيفريمان.
- سوزان ادمونستون فيرير «الزواج» طبعة روترليدج.

- دوغلاس ويليام جيرولد «محاضرات السيدة كاودل السرية» كلاسيكيات عالمية.
- لورد ليتون «آخر أيام بومباي» مكتبة إيفريمان.
- ويليام كارلتون «حكايات» مكتبة سكوت.
- تشارلز جيمس ليفر «هاري لوكر» مكتبة إيفريمان.
- هاريسون انسورث «برج لندن» المكتبة العالمية الحديثة.
- جورج هنري بورو «الكتاب المقدس باللغة الإسبانية» المكتبة العالمية الحديثة، مجلدين.
- بينجامين دزرائيلي أو لورد بيكو نسفيلد «رواية سيبيل» ورواية «كونينغزباي» مكتبة لين نيو بوكيت، مجلدين.
- وليم ميكبيس ثاكري «دار الغرور» و«قصة هنري ازموند» مكتبة إيفريمان، مجلدين.
- وليم ميكبيس ثاكري «خط باري ليندون» و«وثائق غير مباشرة» مكتبة القرن الجديد لنيلسون.
- تشارلز ديكنز «أعمال» مكتبة إيفريمان، ١٨ مجلدًا.
- تشارلز ريد «الدير والموقد» مكتبة إيفريمان.
- انثوني ترولوب «أبراج بارشستر» و«بيت كاهن فراملي» مكتبة لين نيو بوكيت، مجلدين.
- تشارلز كينفسلي «الإبحار غربًا!» مكتبة إيفريمان.
- هنري كينفسلي «رافينشو» مكتبة إيفريمان.

- تشارلوت برونتي «جين اير» و«ثيرلي» و«فيليت» و«الأستاذ» كلاسيكيات عالمية، ٤ مجلدات.
- ايملي برونتي «مرتفعات وذرنغ» كلاسيكيات عالمية.
- إليزابيث غاسكل «كرانفورد» كلاسيكيات عالمية.
- إليزابيث غاسكل «سيرة حياة تشارلوت برونتي».
- جورج إليوت «آدم بيد» و«سايلس مارنر» و«طاحونة على نهر فلوس» مكتبة إيفريمان، ٣ مجلدات.
- جورج وايت ملفيل «المصارعون» المكتبة العالمية الحديثة.
- اليكساندر سميث «دريم ثروب» المكتبة العالمية الحديثة.
- جورج ماكدونالد «مالكولم».
- والتر بيتر «لوحات من وحي الخيال».
- ويلكي كولينز «ذات الرداء الأبيض».
- ريتشارد دودريدج بلاكمور «لورنا دون» مكتبة إيفريمان.
- صاموئيل بتلر «إيريون» إصدار فيلفيلد.
- لورانس أوليفانت «اليتيورابيتو».
- مارغريت أوليفانت «سالم شابيل» مكتبة إيفريمان.
- ريتشارد جيفيريز «حكاية قلبي».
- لويس كارول «أليس في بلاد العجائب» إصدار ماكميلان.
- جون هنري شورثوس «جون انغليزانت» كلاسيكيات ماكميلان بوكيت.

- روبرت لويس ستيفنسون «سيد بالانتري» و«الفتيات والفتيان» إصدار بوكيت، مجلدين.
- جورج غيسينغ «المرأة الغريبة» إصدار عام (محدود).

وقد تم حذف بعض الأسماء مثل تشارلوت ماري يونج ودينا كريك عمدًا.

كتّاب النثر الواقعي:

- ويليام هازلت «روح العصر» كلاسيكيات عالمية.
- ويليام هازلت «شعراء وكتّاب الكوميديا في اللغة الإنجليزية» مكتبة بون.
- فرانسيس جيفري «عرض مقالات من إدنبرة» المكتبة العالمية الحديثة.
- توماس دي كينسي «اعترافات الرجل الإنجليزي متعاطي الأفيون» مكتبة سكوت.
- سيدني سميث «رسائل مختارة» مكتبة سكوت.
- جورج فينلي «الامبراطورية البيزنطية» مكتبة إيفريمان.
- جون جيبسون لوخارت «سيرة حياة والتر سكوت» مكتبة إيفريمان.
- أغنس ستريكلاند «سيرة حياة الملكة إليزابيث» مكتبة إيفريمان.
- هيو ميلر «الصخرة الحمراء الرملية القديمة» مكتبة إيفريمان.

- جون هنري نيومان «أبولوجيا بروفيتاسوا» المكتبة العالمية الحديثة.
- لورد ماكولي «تاريخ إنكلترا»٣، و«مقالات»٢، مكتبة إيفريمان، ٥ مجلدات.
- آرثر ستانلي «نصب كانتربيري التذكارية» مكتبة إيفريمان.
- توماس كارليل «الثورة الفرنسية» ٢، «رسائل وخطابات أوليفر كرومويل»، «سارتر ريزورتس»، «الأبطال»، «الأبطال وعبادتهم» مكتبة إيفريمان، ٧ مجلدات.
- توماس كارليل «منشورات اليوم الأخير» إصدار شابمان وهول.
- تشارلز داروين «أصل الأنواع» إصدار موراي.
- تشارلز داروين «رحلة كلب الصيد» مكتبة إيفريمان.
- ألكسندر وليم كنفليك «رحلة كنفليك إلى الشرق» المكتبة العالمية الحديثة.
- جون ستيورات مل «فلسفة أوغست كونت الوضعية» المكتبة العالمية الحديثة.
- جون براون «ساعات الفراغ..........» كلاسيكيات عالمية. المسافة؟
- جون براون «راب وأصدقاؤه» مكتبة إيفريمان.
- آرثر هيلبس «أصدقاء في المجلس» المكتبة العالمية الحديثة.

- مارك بانتيسون «سيرة حياة ميلتون» سلسلة أدباء اللغة الإنجليزية.
- فريدريك ويليام روبرتسون «خطب ومواعظ في الدين والحياة» مكتبة إيفريمان.
- بنجامين جويت «تفسير الكتاب المقدس» مكتبة روترليدج لندن.
- جورج هنري ليويس «مبادئ النجاح في الأدب» مكتبة سكوت.
- اليكساندر بين «الفكر والبدن».
- جيمس أنثوني فرود «تفكك الأديرة» المكتبة العالمية الحديثة.
- ماري وولستونكرافت «الدفاع عن حقوق المرأة» مكتبة سكوت.
- جون تندل «الأنهار الجليدية في جبال الألب» مكتبة إيفريمان.
- هنري جيمس مين «القانون القديم» المكتبة العالمية الحديثة.
- جون راسكن «سبعة مصابيح»١، المكتبة العالمية الحديثة، «السمسم والزنابق»١، «أحجار البندقية»٣، إصدار جورج ألين، ٥ مجلدات.
- هربرت سبنسر «المبادئ الأساسية»، مجلدين.
- هربرت سبنسر «الثقافة».
- ريتشارد فرانسيس برتون «حكاية الحج إلى مكة» إصدار بون، مجلدين.

- جون سبيك «منابع نهر النيل» مكتبة إيفريمان.
- توماس هنري هكسلي «مقالات» مكتبة إيفريمان.
- إدوارد أوغستس فريمان «أوروبا» كتب ماكميلان التمهيدية.
- ويليام ستوبس «البلانتيجينت القدامى: العائلة الملكية في إنكلترا منذ عهد هنري الثاني حتى عام ١٤٨٥».
- والتر باجيهوت «شارع لومبادر».
- ريتشارد هولت هوتون «الكاردينال نيومان».
- جون روبرت سيلي «هُوَذَا المسيح» المكتبة العالمية الحديثة. هو ذا لو يهوذا ؟
- ديفيد ماسون «توماس دي كوينسي» سلسلة أدباء اللغة الإنجليزية.
- جون ريتشارد غرين «تاريخ قصير للشعب الإنجليزي».
- ليزلي ستيفن «البابا» سلسلة أدباء اللغة الإنجليزية.
- لورد أكتون «في دراسة للتاريخ».
- مانديل كريتون «عهد الملكة إليزابيث».
- فريدريك وليام هنري مايرز «ووردزوورث» سلسلة أدباء اللغة الإنجليزية.

أما الكتّاب التالية أسماؤهم، فقد تم حذفهم من القائمة عمدًا وهم: (هالام،ووديل، غروت، فاراداي، هيرشل، هاميلتون، جون ويلسون، ريتشارد أون، سترلنغ ماكسويل، بكل، أوسكار وايلد،

فيليب هامرتون، فريدريك موريس، هنري سيدغويك، ريتشارد جيب).

أما الآن فسوف أعرض قائمة الشعراء التي تعتبر الأعلى سعرًا بين القوائم السابقة، وذلك لاحتوائها على نسبة أكبر من الأعمال المحمية بموجب حقوق النشر، وفي حال لم أحدد طبعة الكتاب فإنني بذلك أعني النسخة الأصلية.

الشعراء:

- ويليام ووردزوورث «أعمال شعرية» إصدار أكسفورد.
- ويليام ووردزوورث «النقد الأدبي» إصدار نويل سميث.
- روبرت ساوذي «قصائد» شعراء كانتيربيري.
- روبرت ساوذي «سيرة حياة نيلسون» مكتبة إيفريمان.
- صاموئيل تايلر كولريدج «أعمال شعرية» كلاسيكيات نيونس ثن بيبر.
- صاموئيل تايلر كولريدج «أدب السيرة الذاتية» مكتبة إيفريمان.
- صاموئيل تايلر كولريدج «محاضرات في أدب شكسبير» مكتبة إيفريمان.
- جون كيتز «أعمال عشرية» إصدار أكسفورد.
- بيرسي بيش شيلي «أعمال شعرية» إصدار أكسفورد.
- اللورد بايرون «قصائد» إصدار أي هارتلي كولريدج.

- اللورد بايرون «رسائل» مكتبة سكوت.
- توماس هود «قصائد» كلاسيكيات عالمية.
- جيمس وهوراس سميث «عناوين مرفوضة» المكتبة العالمية الحديثة.
- جون كيبل «عام المسيحية» شعراء كانتيربيري.
- جورج دارلي «قصائد» مكتبة ميوز.
- توماس لوفيل بيدوز «قصائد» مكتبة ميوز.
- توماس مور «قصائد مختارة» شعراء كانتيربيري.
- جيمي كلارنس مانغان «قصائد» إصدار دي.جي. أو دونوهيو.
- وينثروب ماكورث براد «قصائد» شعراء كانتيربيري.
- روبرت ستيفن هوكر «الشعر القصصي العامي» إصدار سي أي بايلس.
- ادوارد فيتزجيرالد «عمر الخيام» سلسلة الكنز الذهبي.
- فيليب جيمي بيلي «فيستوس» إصدار روترليدج.
- ارثر هيو كلوغ «قصائد» مكتبة ميوز.
- الفريد تنيسون «أعمال شعرية» إصدار عالمي.
- روبرت براوننغ «أعمال شعرية» كلاسيكيات عالمية، مجلدين.
- إليزابيث براوننغ «أورورا لي» كلاسيكيات المعبد.
- إليزابيث براوننغ «قصائد قصيرة» شعراء كانتيربيري.

- فيليب يورك مارستون «أغنية المد» شعراء كانتيربيري.
- أوبري توماس دي فير «أسطورة القديس باتريك» مكتبة كاسيل الوطنية.
- ماثيو أرنولد «قصائد» سلسلة الكنز الذهبي.
- ماثيو أرنولد «مقالات» مكتبة إيفريمان.
- كوفنتري باتمور «قصائد» مكتبة ميوز.
- سيدني دوبيل «قصائد» شعراء كانتيربيري.
- إيريك ماكاي «رسائل حب عازف الكمان» شعراء كانتير- بيري.
- توماس إدوارد براون «قصائد».
- تشارلز سيتورات كالفيرلي «أشعار وترجمات».
- دانتي جابرييل روزيتي «أعمال شعرية».
- كرستينا روزيتي «قصائد مختارة» سلسلة الكنز الذهبي.
- جيمس تومسون «المدينة ذات الليلة المروعة».
- جين أنغيلو «قصائد» مكتبة ردلتر.
- ويليام موريس «جنة الأرض».
- ويليام موريس «الرومانسيات القديمة» مكتبة إيفريمان.
- أوغستا وبستر «قصائد مختارة».
- ويليام أرنست هنلي «أعمال شعرية».
- فرانسيس تومبسون «قصائد مختارة».

أما هنا، فالشعراء الذين قمت بحذفهم من القائمة بعد تردد شديد هم: (إبينزر إليوت، توماس وولنر، ويليام بارنس، جيرالد ميسي، تشارلز جيرميا ويلس) في حين لم أتردد إطلاقًا بحذف ديفيد مور، فيليسيا هيمانز، ويليام ايتون، ادوين ارنولد، لويس موريس. هذا وقد أدرجت جون كيبل في القائمة احترامًا للآراء المستنيرة مع أن ذلك ضد ميولي الخاصة.

ثمة اسمان غير مألوفان بالنسبة لبعض القراء في القائمة، الأول جيمس كلارنس مانغان مؤلف الرائعة الفنية «روزالين الكئيبة» التي يجب أن تكون في كل مكتبة، إلى جانب الشاعر العظيم توماس ادوارد براون، الذي يعرفه بضع مئات من الناس، ولا ريب أن لديه شهرة أكبر من ذلك بكثير، كما أدرجت أيضًا ادوارد فيتز جيرالد، لأن عمله «عمر الخيام» هو أقرب ما يكون إلى الترجمة منه إلى العمل الحقيقي.

ملخص القرن التاسع عشر:

٨٣ كاتب للنشر في ١٤١ مجلدًا فيها ٩١٧٣٨ شاعرًا.

ولا شك أن القيمة الكاملة لهذه المكتبة بسيطة إلى حد كبير، فعند إنفاقك لنصف شلن يوميًا لمدة ثلاث سنوات سيصبح لديك مجموعة من الكتب لا تقارن إلا بأكبر وأضخم وأغلى المكتبات نظرًا لاتساعها واحتوائها على كتب من كافة فروع الأدب الإنجليزي. وقد أشرت إلى مسألة الخصم في أسعار الكتب الذي حتى وإن كان من قبل بائع الكتب في بلدة صغيرة، سيكون أكثر من كافٍ

لشراء «موسوعة تشامبر للأدب الإنجليزي» بمجلداتها الثلاثة، فهذا العمل لا غنى عنه نهائيًا لمحبي الكتب، فأنا شخصيًا مدين له بالكثير.

والآن، بعد أن تكون قد استمتعت بقراءة هذه المجلدات الثلاثمائة وخمسة وثلاثين بشكل كامل أو جزئي، ستقول لنفسك، إن ذوقك الأدبي قد تكوّن وربما ستبدأ بعدها بالحكم على الأعمال المعاصرة في تأكيد لطيف منك على أنه بالرغم من أنك قد تخطئ أحيانًا، إلا أنك تعلم جيدًا عمّ تتحدث الآن بعد كل مجهودك الذي بذلته.

الفصل الرابع عشر
التقييم الذهني

إن الكتب العظيمة لا تولد بالمصادفة من أذهان أولئك الكتّاب العظماء الذين كتبوها، بل تتدفق من جوهرهم وصميمهم الداخلي فهي تعبير حقيقي عن حياة مؤلفيها، ولا يمكن للأدب أن يصل إلى هدفه الحقيقي إلا بعد أن يتمكن من ترجمة وملامسة حياة قرائه بكل تفاصيلها وبث الحيوية والروح فيها.

إن تطور الإنسان هو نتيجة حتمية للصراع الأبدي بين عقله وغريزته، والذي تكون الغلبة الحتمية فيه للعقل حتى وإن طال حدوثها، والمحرك الأقوى في هذا الصراع هو الأدب، ولأن الحياة عبارة عن أفكار ومشاعر، والأدب هو المخزون الأكبر للأفكار الحقيقية والمشاعر السامية فإن النشاط الثقافي والعاطفي للجميع، باستثناء قلة من المحظوظين، سوف يتراجع وينخفض إلى دائرة ضيقة في عالم مجرد من الأدب وستنحسر شريحة واسعة من النبلاء والعظماء، كما ستتدهور الحياة بسبب تلك الأفكار المظللة والمشاعر التافهة التي لا يمكنها الإحساس بذلك التأثير السامي

لأفكار ومشاعر المبدعين من الكتّاب. فمجرد تخيل المجتمع دون وجود الأدب كفيل بجعلنا ندرك أن وظيفة الأدب هي رفع السوية الفكرية لعامة الشعب إلى القمة.

فالأدب موجود ليخبرنا أن الكاتب الذي تحدث عن حياته الهانئة، جعل عشرات الآلاف من قرائه يعيشون الحياة ذاتها من خلال كتاباته، فالأدب وسيلة للحياة وجوهرها الحي. ومن المؤكد أن لدى الأدب وظيفة ثانوية، ألا وهي قضاء أوقات الفراغ بطريقة مقبولة وغير ضارة، بالإضافة إلى ما يمنحه للقارئ من متعة بسيطة وخاطفة، فمعظم الناس وربما من بينهم عدد لا بأس به من مدمني القراءة، يستغلون فقط هذه الوظيفة الثانوية للأدب، إذ يصنفونه ضمنًا مع لعبة الغولف أو لعبة بريدج أو حتى العقاقير المنومة، إلا أنه لا نية لدى عباقرة الأدب في استخدام هذه الألعاب أو الأدوات لقضاء ساعات الفراغ.

وكل استخدام كهذا للأدب لا يكون في الحسبان بالنسبة لهم، وكونك قد قرأت بعضًا من المجلدات، ربما ستعتقد بأنك تمتلك شغفًا خالصًا للقراءة، إذ تعامل الأدب باحترام ووقار، فأنت لست من أولئك الذين يقرؤون لأن أمامهم ساعتان من الفراغ قبل نومهم، بل لأن لديك رغبة حقيقية في استخلاص كل ما هو ممكن من الأدب فتستمر في هدفك هذا عامًا بعد عام، حتى يشيب رأسك، ولكن، وسط كل هذا الكم من الأعمال التي قرأتها والمخزون الكبير من الكتب، هل أحصيت الفوائد التي جنيتها من

ذلك؟ هل حدث وتوقفت لوهلة لتقوم بتقييم شخصي لما استوعبته أو ما خُيّل إليك أنك تستوعبه يوميًا؟

هل أرضيت نفسك من خلال البرهنة على أنك تستوعب كل شيء بشكل كامل فبدلًا من أن ينعشك الأدب هرب من بين يديك؟

لأنك إذا تجاهلت هذه الاحتياطات، ستصبح دون علمك من هؤلاء الأشخاص التافهين الذين يقرؤون الأدب فقط لأن الحياة الأبدية بعيدة جدًا «أي لقضاء أوقات الفراغ» فربما يكون شغفك واهتمامك الذي كرسته للأدب ليس سوى نوع من أنواع التعود والإدمان، إن افتراضًا كهذا ربما يزعجك ويقلقك فتصرف النظر عنه بتبرم ليتبادر مرة أخرى إلى ذهنك، وربما ستسأل نفسك دون قصد كيف يمكن لأحدهم أن يقوم بالتقييم الذهني؟

وكيف يمكنه تقييم ما اكتسبه من قراءة الكتب؟ وكيف باستطاعته أيضًا أن يكتشف أن ما يتلقاه من الأدب هو الشيء المفترض أن يقدمه الأدب له؟

فهذا الاختبار ليس غامضًا ولا صعبًا كما يبدو لك، فإن لم يصب الإنسان بسعادة غامرة عند لقائه مع الطبيعة، مع الشمس، مع الأرض، التي هي أصله والمحرض الأسمى لمشاعره، إذا لم يرتبك أمام مشاهد الجمال المختلفة إذا تجرد من الفضول فيما يتعلق بأقرانه من البشر أو حتى الحيوانات.

إذا لم يكن لديه لمحات لتوحّد جميع الأشياء مع بعضها بطريقة منظمة.

إذا كان كثير الشكوى، كئيبًا وحسودًا أو متشائمًا.

إذا كان من أولئك الذين يكثرون من عبارات مثل: «هذا زمان الأسى»، «هذا زمان غابت فيه القدوة الحسنة»، «هذا زمان هيستيري!»، «هذا زمان الله أعلم!»، فهذا الرجل بالرغم من كونه يقرأ أرقى الأعمال الكلاسيكية لعشرين ساعة يوميًا، وبالرغم من امتلاكه ذاكرة حديدية، وبالرغم من أنه يضاهي (ريتشارد بورسون) من حيث المعرفة و(شارل سانت بوف) من حيث الاجتهاد، فإنه لا يأخذ من الأدب ما يمكن للأدب أن يمنحه إياه، وفي واقع الأمر، فهو يضيع وقته بذلك فإن لم يتمكن من القراءة بشكل مختلف، فمن الأفضل أن يبيع كتبه أو أن يتبرع بها للفقراء ويتفرغ للعب الكروكيت، فقد فشل في ذلك لأنه لم يستطع دمج تلك الخلاصات المفعمة بالحياة بكيانه والتي وضعها أولئك المبدعون في كل تلك الكتب التي مرت أمام ناظريه، إذ قدم له هؤلاء المبدعون الثقة والشجاعة، الرؤية والنبل، العاطفة والفضول، الحب والتعطش للجمال، لكنه لم يقبل بتلك الهبة، فقد فضّل أن يعيش نصف حياة بعد أن قدموا له فرصة العيش بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلا يمكن أن يقال عن الإنسان بأنه يعيش حقًا إلا حين يحيا تحت وطأة تزاحم الأفكار والعواطف، وهذا ليس إبداعًا أخلاقيًا، إنما حقيقة بسيطة يتفق عليها كل من يعرف ماهية هذا الضغط.

ماذا! تتحدث عن سوناتات شكسبير!

هل سمعت بصرخة شكسبير المرعبة!

كم من الصباحات البهية رأيت
تداعب قمم الجبال بنظرة آسرة
تقبل بوجهها الذهبي المروج الخضراء
تطلي الجداول الشاحبة بكيمياء سماوية

أما بعد، هل بإمكانك أن ترى الشمس على جسر عند تقاطع (لو بورو) في الصباح؟ أو أن تأسرك أشعتها عند تمثال (ويسكي ديوار) عند نهر التايمز، دون أن تثير فيك بهجة الحياة؟

إذا حدث ذلك، فإنك وشكسبير لم تتمكنا من التواصل أبدًا. إنك تتباهى بالطبعة الجميلة التي تقتنيها لترجمة «ميريك كاسوبون» لـ (ماركوس اوريليوس) إذ تستمتع بتذوق إيقاعها الشهير التالي:

في هذا اليوم، عليّ التعاطي مع رجل فضولي كسول، عاق، موبخ، مخادع، كاذب، غيور. فكل تلك الصفات السيئة تنطبق عليه بسبب جهله بحقيقة الجيد منها والسيئ، لكنني أنا مَنْ يستوعب طبيعة الشيء الجيد الذي يكون مرغوبًا فعلًا، أما السيّء فهو القبيح والمخجل حقًا. ومن يعلم أن هذا الآثم قريبي، فنحن لا نتشارك ذات الدم والأصل، بل نتشارك بالسبب والأداة الإلهية ذاتها فكيف يمكنني أن أتسبب في ضرره؟

ومع كل هذه الإيقاعات في أذنيك، ستذهب وتتشاجر مع القائد!

وستخجل من نفسك الأدبية حينما تجدها متلبسة بجهلها بـ (وايثمان) الذي كتب ما يلي:

والآن، حاولوا فهمي جيدًا. إنه لأمر متفق عليه في جوهر الأشياء أيًا كانت ثمار النجاح فلابد من وجود شيء ما يحتم خلق صراع عظيم لجني هذا النجاح. وعندما تقتني سيارة وتفقد أعصابك حين تتعطل في منتصف الطريق فوق التلة!

وتعرف (ووردزوورث) الذي يحاول أن يعلمك ما يلي:

صاحب الروح الهادئة الذي يعبر على إهانات الزمن ومن مركز الأبدية، فإن كل التغيرات المحدودة متناقضة والحياة في البهاء ثابتة لا تتغير، لكنك لابد أن تحزن عندما يختار قطارك نفقًا ليقف به عند الاستراحة.

أما نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس الذي تقرأه الآن بطريقة مختلفة عن قراءة أجدادك له ولكن بنوع من البهجة الجمالية وخاصة في سفر (أبوكريفا) «أسفار الكتاب المقدس» الذي يقول:

(يا بني إن تقدمت لخدمة الرب هيّء نفسك للتجارب، قوم قلبك واحتمل، ولا تنحل في زمان أتعابك، التصق به ولا تبتعد عنه.

لكي تنمو في آخرتك، اقبل كل ما يأتي عليك لتكون طويل الروح في أرض تواضعك فإن الذهب يمحص بالنار.

أيها المتقون للرب انتظروا رحمته ولا تحيدوا لئلا تسقطوا يا خائفي الرب آمنوا به فلا يضيع أجركم، ويا خائفي الرب ارجو الخيرات والحياة الأبدية والرحمة، مجدًا للثالوث الأقدس).

تعتقد بأن بعض أمثلتي تميل إلى الغرابة؟ نعم، هي كذلك، وقد عمدت إلى كونها كذلك، لكنها ليست بأكثر غرابة من الحياة ذاتها فهي تشرح بأكثر من طريقة عملية اختبارك لإنجاز الأدب لمهمته التي تتمثل بالإعلان عن وجودك وتنير نمط هذا الوجود.

إذا كانت الأحداث والمشاعر اليومية لا تستحضر وتستفيد من تلك الأفكار والمشاعر التي تضمها الكتب التي كنت قد قرأتها أو لازلت تقرأها، إذا كانت ذكريات تلك الكتب لا تنمي إدراك الجمال بداخلك أينما كنت، ولا تساعدك على الربط ما بين الأشياء البسيطة والشاملة، ولا تمتص غضبك وتوقر حزنك وآلامك، فأنت لا تستحق لقبًا ساميًا كلقب «القارئ النهم» وربما تقول إنني كمن يلقي خطبة، والحقيقة أنني كذلك، فمزاجي مزاج أخلاقي حاد، وعندما أفكر في الفرق بين ما يجب أن تقدمه الكتب للقراء وبين ما يتكبّده هؤلاء القراء من عناء لفهمها، أشعر بالفزع حيال عدم الكفاءة المطلقة والإخفاق اللامبالي من قبل هؤلاء القراء الجديين. فقلة الجدارة والفاعلية تثير غضبي بشكل رهيب.

قبل أن تبدأ بقراءة عمل فني جديد، ضع الأعمال المتميزة التي تفخر بقراءتك لها خلال العام الفائت ضمن قائمة، ثم ابدأ تلك القائمة بذلك الكتاب الذي كنت قد قرأته بتمعن وحماسة وكان من ضمن خطة العام الجديد من أجل دراسة منهجية منظمة. اختبر أجزاء عقلك وابحث عن الأفكار والمشاعر التي جنيتها من قراءة ذلك الكتاب، فكر ثم تذكر متى تبادر إلى ذهنك آخر شيء من ذلك

الكتاب فيما يتعلق بممارستك وصلتك اليومية لمفهوم الإنسانية. هل يعتبر كتابًا تاريخيًا عندما يسلط الضوء على السياسة المعاصرة؟ أم هل هو كتاب علمي يظهر لك النظام من خلال الفوضى ويساعدك على جمع زوجين من العناصر الفردية لتكوين أربعة عناصر غير قابلة للتجزئة؟

أتراهُ كتاب عن الأخلاق عندما يؤثر في سلوكك وتصرفاتك وبعلاقة الفرد بالفرد؟ وهل يمكننا اعتباره رواية عندما يساعدك في فهم الجميع والصفح عن الجميع؟

هل هو شعر، حينما يصبح مجهرًا يظهر لك الجمال من خلاله أو نارًا تشعل ولاءك الفاتر؟

إذا تمكنت من الإجابة على كل هذه الأسئلة برضًا تام فإن عملية التقييم الذهني التي تتعلق بثمرة قراءتك لذلك الكتاب ربما ستكون مرضية.

أما في حال عدم استطاعتك الإجابة على تلك الأسئلة فإما أن اختيارك للكتاب لم يكن موفقًا، أو أن انطباعك بأنك قرأت الكتاب كان خاطئًا.

عندما تجبرك نتيجة ذلك التقييم على الاعتقاد بأن مكاسبك من القراءة لم تكن بذلك الاتساع الذي كنت تطمح إليه وتتوقعه فمن الضروري أن تبحث عن أسباب ذلك الإخفاق الذي يمكن أن يحدث لأسباب عدة أحدها هو قراءة كتب لا قيمة لها. إلا أنني أستبعد احتمالًا كهذا على أية حال، ذلك لأن القراء الحقيقيين نادرًا

ما يقرؤون كتبًا كهذه إلا في حال كانوا يودون نقدها، وذلك بسبب انشغالهم بقراءة الكتب القيمة، فليس لديهم وقت كافٍ لقراءة الأعمال المعاصرة، وقبل أن يجدوا الوقت لقراءة أعمال كهذه فإن الوقت والنقاد كفيلان بإظهار الغثّ من السمين من بين هذه الأعمال فلا مجال لخداع القارئ الجاد حينها. فمن غير المرجح أن يكون اختيار القارئ الجاد للكتب التي يقرأها اختيارًا سيئًا لكنه ربما يقوم بذلك بطريقتين: إما بشكل كامل أو نسبي، فكل قارئ لابد أن يمر بتجربة رؤية كتاب مألوف بالنسبة إليه لسنين عدة فيجرب قراءته نظرًا لشهرته الواسعة قائلًا لنفسه: «نعم إنه كتاب جيد فهو يشعرني بالمتعة»، ثم يحدث شيء ما لبصيرته فيأخذ الكتاب مرة أخرى ليكتشف فيه أهمية أكثر عمقًا في كل جملة من جمله، ليردد في نفسه قائلًا: «لقد كنت أعمى تمامًا عن هذا الكتاب من قبل»، بالرغم من أن ذلك القارئ لم يصبح أكثر ذكاءً من قبل، لكن شيئًا ما تغير بداخله. لنفترض أن ساعة ذهبية قد وقعت بين يدي رجل لم يسمع بالساعات من قبل، سيشعر بنوع من الجمال ويعجب بالساعة ويستمتع بالنظر إليها، وربما سيقول: «إنها أداة جميلة للزينة، أقدر تمامًا قطعة الحلي الرائعة هذه!»، تخيل بعد ذلك شعوره عندما يأتي أحدهم بحل لهذا اللغز، تخيل حجم النور الذي سيفيض من عقل ذلك الرجل حينما يخبره أحدهم بأن تلك القطعة الذهبية تسمى «ساعة»، إن أحداثًا كهذه غالبًا ما تتكرر كثيرًا في حياة القارئ النهم حينما لا يمتلك حلًا ولا يتوقع وجود حل أيضًا، وهذا ما أسميه الخيار الأكثر سوءًا في نظري. فهو خيار سيّء

حينما يشمل عددًا من الكتب ولا يسلك ترتيبًا معينًا، مما ينتج عنه مزيدًا من الفوضى في الانطباعات الضعيفة، التي يشوش أحدها على الآخر، إذ يجب أن نسمح للكتب بأن يساعد أحدها الآخر، فتكون عونًا لبعضها البعض، ولكي تقوم بذلك لابد من وجود بعض المبادئ التوجيهية.

فما هي هذه المبادئ التوجيهية وكيف للقارئ أن يعرفها؟

لحسن الحظ أنه لا يمكن لأي شخص كان أن يحدد مبادئك، بل أنت من يجب عليه تحديدها، لكنني سأجازف بطرحي لهذه الملاحظة العامة التي تقول:

ليست الأرقام هي ما يهم في العالم الفكري، بل التناسق هو الأهم، أما فيما يتعلق بالحقائق والأفكار فالخطأ الأكبر الذي يقع فيه القارئ المتفائل هو رضاه بأسماء الأشياء بدلًا من انشغاله بأسباب وقوعها، فهو يبحث عن ماهية الأشياء، ولا يسأل عن السببية، إذ يدرس التاريخ دون أن يخمن أن كافة الحوادث التاريخية التي قرأها حدثت بسبب حقائق جغرافية، ويصبح عالمًا للنبات، يمكنه أن يأخذك إلى المكان الذي تنمو فيه زهرة «سيثوربيا يوروب» دون أن يبالي بالتساؤل عن الحال التي ستؤول إليها الأرض دون غطائها النباتي.

وهو أيضًا يطوف جيئة وذهابًا في الأمسيات المرصعة بالنجوم مسميًا لك باستمتاع شديد كل مجموعات النجوم بدءًا من مجرة المرأة المسلسلة حتى العقرب، ولكن في حال سألته عن سبب احتجاب

كوكب الزهرة عن الرؤية عند منتصف الليل، سيجيبك بكل بساطة بأنه لا يهتم في التفاصيل العلمية، لأنه لم يتعلم أن الأسماء لا تعني شيئًا وأن إمتاع النظر فقط يعتبر أمرًا تافهًا، إذا ما تمت مقارنته بالرؤية التخيلية التي تعتبر تلك التفاصيل العملية جزءًا لا غنى عنه.

لديّ قناعة تامة بأن معظم القراءات غير منطقية، إن صح التعبير، فهي تفتقد العنصر الأكثر تحفيزًا للإحساس الشعري بالحياة، إذ لابد أن تكون قراءات القارئ غير منطقية ما لم يتمكن من وضع مخطط للمعرفة، حتى وإن كان ذلك المخطط مخططًا مبدئيًا، فيجب أن ينجح في تكوين بعض الرؤى حول الترابط بين مجالات المعرفة المتعددة قبل أن يفهم الفرع الذي يتخصص به تمامًا، أما في حال لم يقم برسم مسودة لهذا المخطط ليملأها بكل معلومة تعترضه وليتمكن أيضًا من إدراك أوجه التقارب بين جميع الأجزاء، فإنه سيبدد نسبة كبيرة من جهوده بذلك، فهناك أعمال فلسفية معينة يبدو أنها تقوم بذلك بمجرد إتقانها، لذلك فالقارئ الذي خفي عليه قراءتها سيتمكن من معرفة الأسباب والنتائج لكل الظواهر في كل مكان من الآن وصاعدًا، فهذه الأعمال تترك بصمة في الدماغ تفصّل فيها مجال المعرفة بأكمله.

وخير مثال على هذه الأعمال هو كتاب «المبادئ الأولى» لـ (سبنسر) وأعلم أنه لا فائدة من حثّ الناس على قراءته لأن مجرد سماع عنوانه ربما يرعب الجميع، وتكلفته تضاهي حجز مقعد في

الصفوف الوسطى من المسرح، ولكن إذا ما قاموا بقراءته فأي تقييم سيكون لديهم خلال سنوات قليلة.

إذا قاموا بقراءة مقالات منفصلة كما في كتاب «الأخلاق والشكل» أو «أصل العلم»، «من مجلد تبلغ قيمته نصف شلن لمقالات سبنسر والذي نشر من قبل واتز وشركاه» فإنهم سيمنحون النور الساطع والقوة الضرورية لتركيب الأشياء.

وبكل الأحوال فإن عدم وجود تدابير توجيهية كهذه سينتج عنه مزيد من حالات التقييم الفكري الكارثية. فالطريقة التي يشع بها خيط من النور أو الإشارة أو التلميحة ذات المغزى هي التي ستوضح وتنشط الحياة الفكرية لمتلقيها، وإذ تعتبر هذه الظاهرة هي الأكثر قداسة وروعة بين الظواهر الفكرية فبعض القراء يبحثون عن هذا الشعاع ولا يجدونه، والبعض الآخر لا يفعلون ذلك البتة.

إن السبب الأول للتقييم الذهني الكارثي يبقى أكثر بساطة من السبب الذي تعاملنا معه للتو، فهو ينشأ بسبب فقر ملَكة التأمل. فبعض القراء يقرؤون، ويقرؤون، دون وعي لجرأتهم في افتراض أن بإمكانهم، دون أدنى جهد، استيعاب الجوهر الحقيقي الذي أمدهم به الكاتب، فهم لا يستطيعون ذلك، والدليل على عجزهم يظهر طوال الوقت في حيواتهم، وأعني بذلك أنه إذا لم يقم القارئ بقضاء ساعات طويلة في التفكر والتأمل في محتوى الكتاب،كالوقت الذي قضاه في قراءته تمامًا، فإنه بذلك يهين مؤلف ذلك الكتاب، فإذا لم يعرّض نفسه لجهد فكري وعاطفي في تصنيف الأفكار وفي

التشديد على الروح والبصمة الخاصة بالمشاعر المعروضة في الكتاب فإن القراءة معه لا تتعدى كونها مجرد وسيلة للتسلية فقط، وهذا أمر محزن للغاية لأن التأمل لم يكن يومًا نشاطًا عامًا. فإذا قام أحد أصدقائك بسؤالك عن كيفية قضائك لليلة الماضية، ربما ستجيبه قائلا: «لقد كنت أقرأ»، حينها سيتأثر صديقك وستشعر أنت بالفخر. ولكن إذا أجبته بالقول: «لقد كنت أتأمل!» فسوف يميل إلى الابتسام وستجيب أنت بالاستحياء.

إنني أعرف هذا الإحساس وأشعر به بنفسي، ولا أستطيع تقديم أية تفسيرات له، ولكن لا شك لدي أبدًا بأن عدم التأمل هو السبب الرئيسي للتقييم الخاطئ والمخيب للأمل.



يقدم هذا الكتاب للقارئ خطة علاجية وتمرينًا على القراءة الفعّالة يمكن تطبيقها على الأدب بشكل عام، وهو مُرشد لشراء الكتب وتكوين مكتبة شاملة للأدب الإنجليزي.

كما يمكن عدّه محاضرة لدق الأساس في مشروع لتشكيل الذائقة الأدبية، فهو يقترح أعمالاً غاية في الأبداع لكتّاب لم يأخذوا مكانتهم من الاهتمام لدى القارئ، الذي حوّلت مسار ذائقته الأدبيّة كثرة الحديث عن أدباء بعينهم دون الالتفات إلى آخرين لا يقلون عنهم إبداعًا.

ويمكن اعتماده لفهم كيفية قراءة النص الأدبي بصورة مستندة على قيمته الإبداعية لا الأخذ بنصائح الكتب الأكثر مبيعًا.

ورغم انحياز الكاتب إلى الأعمال الكلاسيكية إلا أنّه يحذّر من الانجرار خلف فكرة إن كل كلاسيكي هو عظيم وخالد، فثمة الكثير مما هو عصري سيشار إليه فيما بعد على أنه كذلك.

إن اصطلاحات أدبية مثل: الأسلوب، الموضوع، الشخصي، السلوك.. إلخ، تمكننا من الحصول على فهم بسيط لها وحازم في نفس الوقت، لأن الكاتب يعي بالضبط ما يرمي إلى إيصاله للمتلقي الراغب في تربية ذائقته للنص الأدبي، وبما يمكن قوله بالطرق الأكثر قدرة وسهولة على الإيصال، وهنا بالضبط تكمن قوة هذا الكتاب.

الناشر



